الفصل الثالث

الحكاية الخرافية الشعبية

سبق أن قمنا بترجمة كتاب « الحكاية الخرافية (١) » للباحث الألمانى « فريد رَيش فون دير لاين » . والبـــاحث فون دير لاين هـو أحـد الـذين تخصصوا فى دراسة الحـكاية الخرافية ، لا فى الأدب الألمانى فحسب ، بـــل فى الادب العالمى كله . والشىء الذى دفع الكاتب الى هذا التخصص العميق ، ما اكتشفه فى الحكايـــة الخرافية فى كنوز ثمينه ، لا من الناحية الفنية فحسب ، بـــل من ناحية الشعوب وتصوراتها ومعتقداتها . ومن ثم فقد ألف الكاتب كتابه هذا ـــ فضلا عن غيره من الكتب والمقالات القيمة ـــ لكى يبرز للدارسين قيمة نوع أدبى ظل يوصف زمنا طويلا بأنه حكايات العجائز .

وقد حاول الكاتب فى هذا الكتاب أن يرجع الحكاية الخرافية الشعبية الى أصولها ، اى ديانات الشعوب القديمة مثل الروحانية والطوطمية والفيتشية ، كما ردها الى تصوراتهم . وقد انتهى الكاتب الى أن الحكاية الخرافية البدائية تكونت فى الأصل من أخبار مفـــردة نبعت من حياة الشعوب البدائية ومن تصوراتهم ومعتقداتهم . ثـــم تطورت هذه الأخبار واتخذت شكلا فنيا على يد القاص الشعبـــى ، وأصبحت لها قواعد وأصول محددة درسها الكاتب دراسة وافية . ولما فرغ الكاتب من ذلك ، قدم لنا نماذج رائعة للحكايات الخرافية من أدب العالم ، محاولا أن يستخلص الحقائق المميزة لطريقة الرواية لـــدى كل شعب على حـــدة .

وعلى ذلك فليس هناك ما يدعو لأن نعيد ذكر النتائـــج التى توصل اليها الباحث « فون دير لاين » ، وانما نود أن نحيل القارىء على قراءة هذا الكتاب قبل أن يقرأ بحثنا فى الحـكاية الخرافية حتى يستطيع أن يكون فكرة مجملة عن هذا النوع الأدبى الشعبى .

---

(١) فون دير لاين : الحكاية الخرافية . ترجمة : نبيله ابراهيم . الطبعة الثانية . بيروت ١٩٧٦ .

وحيث ان كتابنا هذا تجمعه فكرة واحدة وهدف واحد ، وهو الكشف عن الاهتمام الروحى الشعبى الذى يدفع الانسان الشعبى لخلق كل نوع من هذه الأنواع الأدبية التى نعرض لها بالدراسة فاننا نبدا بحثا فى الحكاية الخرافية من هذه الزاوية .

فى القرن الرابع عشر ساد فى أوروبا نمط قصصى لم يكن الباعث عليه سوى تراث الشعوب من الحكايات الخرافية ، ونعنى به القصة القصيرة Novelle وربما كان أول من بدأ كتابة هذا النمط القصصى هو « بوكاشيو » وذلك فى مجموعته المسماة«دى كاميرون» .وقد حاول « بوكاشيو » أن يغير من الحكاية الخرافية بحيث انه أبعدها عن طبيعتها الشعبية ، وأكسبها طابعا ذاتيا .

وفى عام ١٥٥٠ م نشر « جيوفانى فرنسسكو سترابورالا » مجموعة قصصه متأثرا كذلك الى حد كبير بالحكايات الخرافية . ولكن سترابورالا كان ألصق بالحكاية الخرافية الشعبية من بوكاشيو ، فقد اهتم بابراز الشخوص لا بالحدث كما هو الحال فى الحكاية الخرافية الشعبية . هذا فضلا عن ان مجموعة سترابور الا قد اشتملت على حكايات شعبية دونت فيما بعد من أفواه الشعب مثل حكاية « القط المنتعل حذاء » ، وحكاية « الحيوان الحافظ للجميل » . وحكاية «شيخ اللصوص » الى غير ذلك .

وفى القرن السابع عشر فيما بين عام ١٦٣٤ ، ١٦٣٦ م ظهرت مجموعة « جيامى باتستا بازيلى » التى عرفت فيما بعد باسم مجموعة « بينتامارون » وقد حرص بازيلى فى هذه المجموعة على ابراز التعبيرات والعادات الشعبية . هذا فضلا عن أنه ضمنها كثيرا من الحكايات الخرافية الشعبية الشهيرة . ويمكننا أن نقول من ناحية الدراسة العلمية أن بازيلى يعد أول جامع للحكايات الخرافية الشعبية جمعا يقترب من أصولها .

ثم ظهرت بعد ذلك مجموعة « بيروه » وقد قدمها على أنها حكايات قد سمعها من جدته ويود أن يحكيها لأبنائه . وبهذا ساد هذا النوع من الكتابة القصصية المستوحاة من الحكايات الخرافية فى

القرن الثامن عشر ، بخاصة بعد أن ظهرت ترجمة جالاند لألف ليلة وليلة (١) .

وربما كان ابرز ما ظهر فى ذلك الوقت مجموعة فيلاند ، تلك التى حاول أن يبرز فى مقدمتها خصائص الحكاية الخرافية الشعبية . قال : « ان الحكايـــة الخرافية الشـــعبية شـــكل أدبى تلتقى فيـــه ظاهرتان للطبيعة الانسانية ، ظاهرة الميل الى الشىء العجيب ، وظاهرة الميل الى الشىء الصادق والطبيعى ، فحيث تلتقى هاتان الظاهرتان توجـــد الحكاية الخرافية . على أن هاتين الظاهرتين يتحتم أن تجمع بينهمـــا علاقة صحيحة . فاذا لم توجد هذه العلاقة الصحيحة ، فقدت الحكاية الخرافية سحرها وقيمتهـــا ، وهذا يعتمد بطبيعة الحـــال على ذوق الكاتب ومهارته (٢) .

وطبيعى أن فيلاند يشير فى ذلك الى الحكاية الخرافية التى يعاد تشكيلها على يد الأديب . والحكاية الشعبية من وجهة نظره لا يتحتم تدوينهـــا ، اذ أن مجالها الرواية الشفوية ، وهى تنمو من خلالهـــا .

من هنا نرى أن الفرق بين الأدب الشعبى والادب الفنى — على حـــد تعبير الأخوين جرم فيما بعد — قد بدأ يتمثل لكتاب هذا العصر . حتى كان القرن التاسع عشر حينما أخذ الأخوان جرم على عاتقهمـــا جمع ثروة الحكايات الخرافية الشعبية من أصولها قدر المستطاع .وربما كانت هذه أول محاولة صادقة فى هذا الميدان . على أن محاولة اعادة كتابة الحكايات الخرافية بأسلوب ذاتى لـــم تكـــن قد أنتهت بعـــــد . ونعنى بذلك محاولة « أخيم فون أرنيم » فى مجموعتـــه ، « بوق الصبى السحرى » . وهنـــا احتدم الخـــلاف بين الطائفتين ، بين هؤلاء الذين يحرصون على تدوين الأدب الشعبى من أفواه الشعب قـــدر استطاع ، وهؤلاء الذين يضعونه فى ثوب فنى معـــد يطل منه الأسلوب الذاتى . وقد انحصر الخلاف هنا بين يعقوب جرم وأخيم فون أرنيم . ودارت

---

(١) Andre Jolles : op. cit. S. 227 - 228.

(٢) Andre Jolles : op. cit. S. 230.

مساجلات بينهما يحاول فيهـا كل منهما أن يوضح وجهة نظره ويؤكدها • ونود ان نشير الى بعض هـذه المساجلات تمهيـدا لدراستنا للحكاية الخرافيـة الشعبية •

لقد بدأ يعقوب يشرح لأرنيم وجهة نظره فى الأدب الشعبى فقال : « إن الأدب الصادق هو الذي يخرج من الروح الشـاعرة فى صـورة كلمات • فهو ينبع من دافع طبيعى ومن المشـاعر الفطرية التى تعيش داخل الانسان • والفرق بين الأدب الشعبى والادب الفنى (على حد تعبيره) ؛ أن الأول ينبع من الروح الشاعرة الجماعية ، فى حين أن الادب الفنى ينبع من روح الفرد الشـاعرة • ولهـذا فان الأدب الفنى يعرف مؤلفـه ؛ أما الادب الشـعبى فلا يعرف له مؤلف ، لأنه حصيلة نشاط الجماعة • أما كيف ينشأ هـذا الأدب وكيف ينمو ويتطور حتى يتخـذ شـكلا محددا ؛ فهذا أمر سيظل رهن الافتراضات • وعلى كل فانه ليس غريبا ان نتصور موضوع التأليف الشعبى اذا مثلناه بالميـاه التى تاتى من جهـات عـدة ؛ لتلتقى مع بعضها البعض وتجرى فى مجرى واحـد عميق • انني لاأعتقد أن هنـاك مؤلف يدعى هومير ؛ أو أن هنـاك مؤلفـا لملحمة « النيبلانجن ليـد » •

ولا يعنى هـذا ـ استكمالا لوجهـة نظر جرم ـ أن العمل الأدبى الشعبى المكتمل تؤلفـه الجماعة وانما يؤلفه الفرد الشعبى • فليس هناك أدب شعبى ، وانما هناك أديب شعبى • وهـذا الأديب ينسى اسمه لانه يخرج من الشعب معبرا بأدبه وهو يحاول أن يقرب ما يؤلفـه للشعب • ويقول يعقوب جرم فى هذا المجال : « كم أكون سعيدا بنشاطى الروحى لو اننى ألفت أغنيـة تعلق بهـا الشعب بأسره ورددها جميعا ؛ دون أن يحاول البحث عن مؤلفها • أنه لمن العبث حينئذ أن أحاول ادعاء ملكيتى لهذه الأغنية ؛ لأنهـا أصبحت حقا ملكا للشعب » •

ويستمر جرم فى رده على أرنيم فيقول : « لو أنك آمنت كما أومن بأن الدين من وحى الالة ، وأن اللغة بالمثـل تنبع مـن مثـل هـذا الأصـل الكلى ، فانه ينبغى عليـك بعـد ذلك أن ترى معى أن الادب

القـديم بأشكاله العـديدة قد نبع من الكل ، ولم يكن فى صورته المكتملة نتيجه ترو او خلق فردى » •

وهـدأ الخلاف بين الأديبين بعـد ذلك لوقت ، وذلك حينما زار أرنيم الاخوين جرم واطلع على مجموعتها الجديدة عام ١٨١١ وأعجب بها كل الاعجاب • وقد دفع هذا الاعجاب أرنيم لأن يسرع فى نشر هذه المجموعة ، فضلا عن أن يساهم فى نشرها •

ومع ذلك فقد احتـدم الخـلاف بينهما مرة أخرى ، عندما اشتد يعقوب فى مهاجمـة هؤلاء الذين يحورون الحكايات الخرافيـة وفقـا لأهوائهم ، قال : « ان تقديسى للأدب الشعبى الطبيعى يزداد يوما بعـد يوم ، فانا لست أريد غيره • ان الأدباء الافراد ليس فى وسعهم — مهما فعلوا — أن يكسبوا الأدب الشعبى لونا واحـدا جـديدا ، وانما هم يخلطون الالوان بعضها ببعض » • وأسرع أرنيم فى الرد عليـه واتهمه بأنه لا يعرف شيئا عن مهمة الأدباء الافراد ، لا بمعنى أنه لم يقرأ لهم ، وانما بمعنى أنه لا يفهم هدفهم • فمجموعة برينتانو ليست وظيفتها تسلية الأطفال وانما هى كتاب للكبار يثير فى نفوسهم المقدرة على الخلـق ، وفى هـذا تتمثل قيمة الحكاية الخرافية ، فهى ان لم تكن وسيلة لاثارة المقـدرة على الخلق ، فقـدت قيمتها وسحرها • ان قيمة القـديم تتمثل فى أنه يبعث على خلق الجـديد ، ولهـذا فان الأدباء عليهم أن يبـدءوا من حيث انتهى القـديم •

ولم ينتـه هجـوم أرنيم دون أن يترك أثرا فى نفس يعقوب • فأرسـل اليـه يصالحه ويشرح له مهمته التى تنحصر فى جمع الحكايات الخرافية من أصولها ، ذلـك أن هذه الأصـول تطلعنا على قيمتهـا الحقيقية الصادقة ، التى بسببها صارعت الحكاية الخرافية الزمن وعاشت حتى اليـوم • ثم قال له عبـارته المشهورة : « كما أن الانسان فقـد الجنـة بخروج آدم منهـا ، فكذلك أغلقت دونه حدائق الشعر القديم • ومع ذلك فان كل انسان مازال يحمل فى قلبه جنـة صغيرة ، ومازال يلح

في ارتيـاد حـدائق الشعر القديم ليتنسـم فيها عبيره (١) » .

* * *

هذه المساجلات الأدبية ان دلتنا على شيء فهي تدلنا على أن هنـاك أدبا يسمى الحكايات الخرافية الشعبية . وهي تختلف في جوهرها عن تلك التي يكتبها الأديب الفرد عن ترو متمثلا فيهـا روح الحكاية الخرافيـة الشعبية . وسنحاول أن ندرس العـلاقة بين النوعين والفرق بينهما بعد أن نفرغ من دراستنا للحكاية الخرافية الشعبية .

ومهمتنا الآن أن نتساءل عن الدافع الروحي الذي ينشأ عنه هذا النوع الأدبي ، ثم نتساءل بالتـالي عن طبيعـة الحكاية الخرافية .

على أننا نود ، قبل أن نخوض في هـذه المناقشة ، ان نأتي بمثال من تراثنا الشعبي الخرافي ، حتى يكون تحليلنا من خلال شاهد ملموس .

تعود ولد صغير أن يخرج كل يوم متنزها على حصانه ثم يعود الى منزله . وكانت الأم تنصحه ألا يبعد عن البيت حتى لا يداهمه خطر ، وكان الابن الصغير يستمع الى نصيحة أمه ولا يبعد عن البيت كثيرا .

وذات يوم خرج الصبي كعادته راكبا حصانه ، فتجول بعيدا عن البيت فأبصر امرأة عجوزا تجلس الى جانب شجرة فاقترب منها وأراد أن يعاكسها فداسها بقدم حصانه . فاغتاظت العجوز وقالت له : روح ربنا يبتليك بعشق الليمونات الثـلاثة . وفي الحـال تملك الصبي عشق الليمونات الثلاث وعزم على أن يصل اليها .

ولم يفكر الصبي في العودة الى بيته بل سار في طريقه على غير هدى حتى يصل الى الليمونات الثـلاث . وعلى الرغم من أنه لم يكن يدري ما هي هذه الليمونات ، وعلى الرغم من أنه لم يكن يعرف أين توجد ، فقـد استمر في طريقه .

وعنـد مفترق الطرق كان يجلس رجل عجوز كأنما كان في انتظار

---

(١) اقرأ عن هذه المساجلات بتفصيل أكبر في كتاب اندريه يولس السابق ذكره ص ٢٢١ ـ ٢٣١ .

الصبى • فما أن أبصر الصبى حتى ابتدره قائلا : الى أين تسير يا بنى ؟ قال الصبى انى ذاهب لأحضر الليمونات الثلاث • قال الرجل : وهل تعرف مكانها ؟ فأجاب الصبى : لا ، ولكنى عازم على الوصول اليها • قال الرجل: ولكن الطريق اليها يا بنى محفوف بالأخطار • أجاب الصبى : بل سأذهب لأحضرها • قال الرجل : اذا كنت مصرا يابنى على ذلك ، فسر فى طريقك الطويل حتى تصل الى غابة كبيرة تجلس عند مدخلها وحوش مهولة • خذ هذا الطعام معك وارمه لها حتى تنصرف عنك • وخذ هذا الحصان السحرى فبفانك اذا ركبته طار بك فلا يدركك أحد • ثم أدخل الغابةبهذا الحصان • ستجد الغابة مظلمة موحشة ، ولكن عليك ان تدخلها اذ أن الليمونات الثلاث تتدلى من شجرة ضخمة تقع فى وسط الغابة • فاقطف الليمونات الثلاث وعد الى أدراجك • ولكن حذار أن تشق ليمونة من الليمونات الا اذا كان لديك ماء وفير •

بهذه النصائح الطبية ، وبهذا التحذير رحل الصبى ممتطيا صهوة الجواد السحرى حتى وصل الى الغابة • وما ان رأى الوحوش حتى رمى اليها بالطعام فالتفت من حوله وانصرفت عنه • فدخل الغابة الموحشة وظل يسير فيها حتى وصل الى الشجرة الضخمة حيث تتدلى الليمونات الثلاث • فقطفها بسرعة وطار على حصانه حتى خرج من الغابة سالما •

وجلس الصبى فى مكان ما وهو سعيد بحصوله على الليمونات الثلاث وشغوف كل الشغف لأن يعرف ما بداخلها بخاصة أن كل ليمونة كانت فى حجم الحجر الكبير • ونسى الصبى تحذير الرجل العجوز له بألا يشق ليمونة من الليمونات الا اذا كان لديه ماء ، وشق ليمونة منها • فبرزت له منها امرأةجميلة وسرعان ما طلبت الماء لتشرب • ولم يكن مع الصبى ماء • عندئذ أخذت الفتاة الجميلة تذبل أمام عينيه وتهاوت وسقطت ميته وتذكر الصبى فى الحال تحذير الرجل العجوز • وذهب وملا وعاء من الماء وجلس وشق الليمونة الثانية • وبرزت له فتاة أخرى جميلة وطلبت الماء لتشرب • فأعطاها الصبى الوعاء فأخذت تشرب حتى فرغ الاناء عن آخره • ثم طلبت المزيد من الماء • ولكن الصبى لم يكن لديه أكثر من ذلك ، وكان مجرى الماء الذى ملأ منه الوعاء بعيدا عنه • ولما لم تجد الفتاة مزيدا من الماء للارتواء ، أخذت فى الذبول حتى ماتت •

وعندئذ أصر الصبى على ألا يشق الليمونة الثالثة الا اذا جلس قرب نبع من المياه • فلما شق الليمونة وبرزت له الفتاة الجميلة الثالثة قدم لها المـــاء ، وظلت تشرب حتى ارتوت ودبت فيها الحياة وجلست لتتحدث معه •

وسعد الفتى بالفتاة التى أصبحت فى حكم زوجته • وأخبرها بأنه سيصحبها الى بيته لكى يتزوج بها هناك • ولكنه طلب منها أن تجلس فوق شجرة بعيدا عن الأبصار حتى يذهب الى بيته أولا فيخبر أهله بعزمه على الزواج حتى يعدوا العدة لذلك •

وجلست الفتاة الجميلة فوق شجرة عالية • وفى هذه اللحظة مرت امرأة عجوز قبيحة الشكل ، وكانت تسير بجانب نهر • وفجأة وجدت صورة فتاة شابة تنعكس على صفحة المياه • وظنت العجوز أنها صورتها وانها ارتدت شابة • فلما ذهبت الى بيتها وجدت نفسها عجوزا كما هى • عندئذ عادت الى المكان نفسه ، ورفعت رأسها الى أعلى فأبصرت الفتاة تجلس فى أعلى الشجرة • وحسدت المرأة العجوز الفتاة على جمالها وشبابها ، فوقفت تتحدث معها وعلمت أنها تجلس فى انتظار زوجها •

ودبرت المرأة العجوز الحيلة كى تجعـــل الفتـــاة تنزل وتجلس هى مكانها • فلما نزلت الفتاة غرزت فى رأسها دبوسا وسرعان ما تحولت الفتاة الى حمامة • أما هى فقد صعدت الشجرة وجلست فى المكان الذى كانت تجلس فيه الفتاة •

وعاد الفتى الى فتاته ، ولكنه صدم اذ وجد امرأة عجوزا تجلس مكانها • وتحدثت المرأة العجوز اليـــه وقالت له : لا تنزعج فأنا كنت مسحورة فى شكل فتاة جميلة ، ولكننى عدت الى شكلى الأصلى • وأنا الآن من نصيبك وأمرك الى الله •

ولم يجد الفتى مفرا من أن يصطحبها ولكنه اشترط عليها أن تغطى وجهها وألا تظهر للناس فى بلدته • ووافقت العجوز على هـــذا الشرط فسار بها الفتى راجعا الى بيته •

أما الحمامة المسحورة فقد ظلت تطير خلفهما حتى وصلت كذلك الى بيت فتاها • فكان كلما أعد الطاهى الطعام للفتى وحمله الى سيده ؛ طارت الحمامة وقلبت الأكل •

وتأخر الطاهى فى تقديم الطعام لسيده.فخرج الفتى يسأل الطاهى عن سبب تأخير الطعام ويعنفه • ولكن الطاهى شرح له أمر الحمامة • عندئذ اختفى سيده فى مكان ما ليتحقق الأمر • فلما أعد الطاهى الطعام وجاء ليحمله ، طارت الحمامة واقتربت منه وقلبت الطعام • وفى لحظة أمسك بها سيده ووجد الدبوس فى رأسها فانتزعه • وفى الحال تحولت الحمامة وعادت الى شكلها الأصلى ، واذا بهـا فتاته الجميلة •

وجلست الفتاة وأخذت تشرح له ما حدث من فعل المرأة العجوز ودخل الفتى على العجوز الحجرة وأخرجها منها وقتلها على رءوس الأشهادوعاد وتزوج فتاته وعاش فى التبات والنبات •

ان أول شىء يسترعى نظرنا فى هذه الحكاية هى أنها بدأت مع البطل رحلته وهو صبى صغير ، حتى اذا انتهت الحكاية فى هذا الحيز المحدود تكون قد وصلت بالبطل الى مرحلة النضج والاكتمال عنـدما يتمكن من الانتصار على المصاعب والعقبات ويتوج انتصاراته بالزواج ؛ ولهـذا تنتهى الحكاية بالعبارة المحفوظة : وعاش فى التبات والنبات وخلف صبيان وبنات •

ومما يسترعى نظرنا كذلك أن البطل يبدأ مغامراته من الواقع ،من البيت الذى نشأ فيه حيث ترعاه أمه وتخاف عليه من أن يبعد عن البيت • وما يلبث البطل أن يجتذبه العالم المجهول وكأنه مغناطيس ينجذب اليه تلقائيا • ويعبر عن هـذا فى الحكاية أن الصبى ابتلى بعشق الليمونات الثلاث بمجرد أن نطقت العجوز بالدعوة عليه بعشقها • وقد كان هـذا العشق للمجهول آسرا له بحيث نسى بيته وأمه ، بل لنقل نسى حياة الراحة والدعة ، وأحب المغامرة الشاقة • وقد كان تحذير الرجل الطيب له كفيلا بأن يصرف الصبى عن مطلبه ، ولكن عشقه للمجهول لم يكن يصرفه عن عزمه • عندئذ لم يجد الرجل مفرا من أن يمنحه الأدوات السحرية والنصيحة اذ وجده أهلا لذلك •

والى هنا نقف لنقول ان الحكاية الخرافية تمثل فى ظاهرها رحلة البطل فى العالم المجهول من أجل الحصول على شىء مجهول • ومع تطور المغامرة ينمو وعى البطل تدريجيا ، فهو فى المرحلة الأولى يندفع وراء المغامرة دون علم بمكان الشىء المجهول وكنهه • وهو فى المرحلة الثانية يعرف مكانه ولا يعرف كنهه • ثم يعرف أخيرا كنه هذا الشىء ويفقده ثم يعثر عليه أخيرا • وحتى عندما يصبح هذا الشىء المجهول حقيقة يمسك بها بين يديه ، يعود فيعرض هذا الشىء الحقيقى ، بسبب عدم حرصه عليه ، للخطر • فاذا بهذا الشىء الحقيقى أصبح وهما يحلق بعيدا عنه • وكان ينبغى عليه لكى يمسك بهذا الوهم أن يخلصه من السحر ومن سبب السحر • فلما فعل هذا انقلب الوهم الى حقيقة مرة أخرى ، وكانت هذه النتيجة هى خلاصة تجاربه مع العالم المجهول ، وهى فى الوقت نفسه المكافأة التى حصل عليها البطل وهى تمثل المكافأة الطيبة التى ينبغى أن يكافىء بها مثله •

وقد كان من الممكن أن يظل البطل فى العالم السحرى المجهول ، وأن يتزوج فى هذا العالم ، ولكننا نجد انه يصر على العودة من حيث بدأ مغامرته • وكأنه لم يتذكر بيته وأمه الا عندما ظفر بمطلبه وارتاحت نفسه •

هذه التجارب الشاقة التى خاضها البطل منذ أن كان صبيا صغيرا دون خوف أو تردد ، تصور رحلة الانسان مع تجاربه الداخلية ، على الرغم من أن الحكاية لا تصورها الا فى العالم الخارجى السحرى العجيب•

وتبدأ رحلة الانسان مع تجاربه الداخلية ، أى مع لا شعوره الذى يعد مخزنا لقوى كبيرة تدفع الانسان لأن يجتاز العقبات من أجل تحقيق كل ما يبدو مستحيلا ، هذه الرحلة يبدأها الانسان مع نفسه منذ أن يبدأ وعيه فى النمو وهو صغير • فهو فى هذه المرحلة يجد فى نفسه دافعا قويا مجهولا يدفعه لأن يستقل عن حضن الام وأن يبدأ فى الاعتماد على نفسه• ثم يزداد الوعى نضجا ووضوحا مع مراحل تطور الانسان • وهو فى كل مرحلة يجد نفسه مدفوعا لتحقيق مزيد من الانجازات • حتى اذا اكتمل وعيه ، وتغلب على كل المعوقات النفسية ، سواء تلك التى تشده

الى الوراء حيث تدفن فرص النجاح وفرص تحقيق الشخصية المتكاملة ، أو تلك التى تظهر فى شكل سلوك ظاهرى كأن يبدو الانسان متهورا فى فعل الفعل ولا يستجيب لدافع التريث والتروى . وكأن يصيبه النجاح بحالة من الانبهار والغرور الى الحد الذى قد يفقده ما حصل عليه من انجازات .

كل هذه للتجارب تحكيها الحكاية الخرافية فى عالم سحرى مجهول شبيه تماما بعالم الانسان الداخلى الخفى الذى تتحرك فيه الدوافع التى يحسها صاحبها وان كان لا يدركها بوعى . وهو يستجيب لها وكأن كل شىء يتم فى عالم من السحر .

ويعد هذا العالم السحرى المجهول من أهم الخصائص الشكلية للحكايه الخرافية . وهى تفعل هذا لا لانها تجسد تجارب الانسان مع عالمه الداخلى الخفى فحسب ، بل لأنها تستجيب كذلك لميل الانسان الفطرى لأن يصور لنفسه دائما عالما أجمل من عالم الواقعى وأكثر منه بهاء وسحرا . ولهذا فان السحر فى الحكاية الخرافيه ليس تاكيدا لبطولة البطل كما هو الحال فى أساطير الأخيار ، بقدر ما هو الضمان الوحيد للبطل الذى ألغاه عالمنا الواقعى . وهى تبتعد عن الزمان والمكان ، لأنهما من لوازم عالمنا الواقعى . كما ان شخوصها لا يمكن أن تعيش الا فى عالمها لأنها تعد انعكاسا لمثل الانسان الفطرية . والحكاية الخرافيه تتألف من مجموعة من الحوادث الجزئية التى تكون فى النهاية حدثا كليا . فاذا حاولنا أن نرد هذه الحوادث الجزئية الى عالمنا الواقعى ، فاننا نشعر على التو أن هذا مستحيل ، لا لأن هذه الحوادث الجزئية ذات طابع سحرى عجيب فحسب ، ولكن لأنها لا يمكن أن تعيش الا فى الحكاية الخرافية . ولا يعنى هذا أن الحكاية الخرافية منفصلة تماما عن عالمنا الواقعى وأناسه الواقعيين ، فهى تهدف أولا وأخيرا الى تصوير نماذج بشرية ، حينما تصور لنا علاقة الانسان بالانسان ، والانسان بالحيوان ، والانسان بالعالم المحيط به ، المعلوم منه والمجهول . ومع ذلك فانه يصعب تماما أن نرد مصادفات الحكاية الخرافية وحوادثها الى عالمنا الذى نعيشه . وهنا يتحتم علينا أن

نتساءل ــ لكى نقدم صورة كاملة لطبيعة الخرافية ــ عن الفرق بين عالمنا الواقعى وعالم الحكاية الخرافية .

ان العالم المجهول بالنسبة لحياتنا الواقعية ينفصل عن عالمنا الزمنى . وليس معنى هذا ان هذا العالم المجهول لا أثر له فى حياتنا ، بل انه على العكس مهم فى حياتنا وفى سلوكنا النفسى كما أنه ليس بعيدا عنا . فهو يؤثر فى حياتنا اليومية ، والاتصال به يولد فى الانسان تأملا من نوع خاص . انه يجذبنا اليه ولكنه يردنا عنه مرة أخرى . اى أن الانسان يشعر ولا شك بعلاقة قهرية بينه وبين هذا العالم ، فهو يثير خوفنا منه وشوقنا اليه فى الوقت نفسه .

أما الحكاية الخرافية فالعالم المجهول يتمثل فيها بطريقة أخرى . انها تعرف الجن والغيلان والنساء الساحرات والمردة ، كما تعرف الموتى فى العالم السفلى ، وتعرف الحيوانات والطيور الغريبة . ولكن أبطال الحكايات الخرافية يختلطون بهذه الأشكال كما لو كانت مثيلتهم . فهم يقومون بواجبهم ــ رغم مقابلتها ــ فى هدوء وثقة ، كما أنهم يتقبلون المساعدة منها أو يحاربونها ثم يستأنفون سيرهم . فالبطل فى الحكاية الخرافية تنقصه تجربة البعد بينه وبين العالم المجهول ، كما انه لا يقابل شخوص هذا العالم مقابلة المتعجب ، وانما يقابلها مقابلة المساوم فى سبيل الوصول الى مأربه . انه لا يمتلك الأساس النفسى الذى يدفعه الى ابداء العجب من كل ما هو نادر وغريب ، كما أنه لا يقوم بمغامراته مدفوعا بالرغبة فى الوصول الى ما يجهله ، وانما يصعد جبالا ويخوض بحارا لكى يصل الى أميرة تسكن هناك . وهو يود تخليصها من سحرها ، أو يقوم بهذه المغامرات لأنه مكلف بمهمة يتحتم عليه القيام بها بنجاح . أما انسان حياتنا الواقعية فهو انسان واقعى يعيش حياة واقعية ، ولا ينقصه فى الوقت نفسه الاحساس بكل ما هو مجهول . ولكنه اذا قام بمغامرة فى عالم مجهول ، فانما تدفعه المعرفة وحدها لخوض هذه المغامرات . وهو ما يلبث أن يرتد الى عالمه الواقعى مدركا أنه انما ينتمى الى هذا العالم المعلوم ، وان شعر بأن كل ما هو مجهول له سيطرة كبيرة عليه . أى أن عالم الحكاية الخرافية ذو بعد واحد ، فى حين أن عالمنا ذو بعدين .

اما الشيء الثانى الذى يختلف فيه عالم الحكاية الخرافية عن عالمنا فهو أن شخوص الحكاية الخرافية تميل الى التبسطيح ، فى حين أن شخوص عالمنا الواقعى تتزع الى العمق الواقعى • فشخوص الحكاية الخرافية أشكال بدون أجساد ، وكأنهم يعيشون بلا واقع داخلى وبلا عالم يحيط بهم • فاذا حكت الحكاية الخرافية أن البطل جلس يبكى فهى لا تفعل هذا لكى تنتقل الينا حالة نفسية ، وانما تتخذ من ذلك وسيلة للاستمرار فى السرد وادراك الهدف • فما أن يفعل البطل هذا ، حتى تظهر له الكائنات المساعدة ، فتأخذ بيده لكى توصله الى هدفه • والبطل لا يمتلك نتيجة لهذا الأسلوب التسطيحى ــ طاقة من الذكاء ، وانما يمتلك الموهبة المقدرة له من قبل • ومن خواص هذه الموهبة أنها مؤقتة وليست دائمة • فهى تظهر فى فترة الأزمات التى يمر بها البطل ثم تختفى بعد ذلك •

ويندرج تحت هذا الأسلوب التسطيحى فى الحكاية الخرافية اختفاء الابعاد الزمنية • حقا انها تصور شخوصا مسنة وأخرى صغيرة السن ، وتحكى عن الأخ الاكبر والاخ الاصغر ، ولكنها لا تصور أناسا يعيشون فى الزمن • بمعنى انهم يهرمون ويعيشون الماضى والمستقبل • فالأميرة تنام مائة عام ثم تصحو وهى ما تزال شابة جميلة ، وكأنها لم تكبر يوما واحدا •

ثم ان عالم الحكاية الخرافية عالم تجريدى على العكس من عالمنا الحسى • وذلك لأنها تخلق عالمها خلقا جديدا وتملؤه بعناصر السحر • ومثل الحكاية الخرافية مثل الصورة داخل الاطار ، والتى تبرز من خلال الاضواء والظلال ، على العكس من التمثال الذى يستغنى عن هذه العناصر ويستعيض عنها بالأعماق • ولهذا فان الالوان والمعدن البراق يلعبان دورهما فى الحكاية الخرافية : فالغابة السوداء ، والأشياء الملازمة للبطل اما من الذهب أو من الفضة ، الى غير ذلك • وكل هذا من خواص الاسلوب التجريدى • كما أن من خواصة أن الحكاية الخرافية لا تعرف سوى النهايات : غنى وفقير ، وسىء الحظ وحسن الحظ ، وشاب ومسن •

وبالمثل يندرج الاسلوب الانعزالى تحت النزعة الى التجريد •

فالبطل منعزل عن الزمان والمكان ، ومنعزل عن الأهل والاقارب • بل ان الاحداث الجزئية تبدو منعزلة بعضها عن البعض الآخر • فزوجة الأب القاسية تطرح أمام ابنة زوجها المسكينة أكواما من الحبوب المختلطة وتكلفها بفرز هذه الحبوب بعضها عن بعض ؛ ثم تحتم عليها أن تتم ذلك فى فترة وجيزة ؛ ثم تأتى الطيور الخيرة لتساعد الابنة فى أداء مهمتها القاسية ، بحيث أنها تنجز العمل فى ميعادة • ولا تستطيع زوجة الأب أن تفسر ذلك ؛ بل انها لا تحاول إن تفسره فتعيد الحدث نفسه ؛ وكأنه منعزل عما قبله ؛ فتطرح أمامها أكواما أخرى لتفرزها •

وهنا نأتى الى خاصية أخرى تميز شخوص الحكاية الخرافية عن شخوص عالمنا الواقعى ، وهى خاصية التسامى ؛ فالحكاية الخرافية تسمو بشخوصها بحيث تفقدها جوهرها الفردى ؛ وتحولها الى أشكال شفافة خفيفة الوزن والحركة • انها تسمو بشخوصها فوق الواقع الداخلى والخارجى ؛ وهى تفرغهم من عواطف الغضب والثورة والحقد والحسد ؛ لكى تدخلهم فى غمار الحوادث التى تنتفى فيها صفات الكآبة والظلمة ، والاحساس بالتعب ؛ حيث تتجاوب ــ رغم كل ما فيها من شخوص شريرة ــ أصداء أهم موضوعات الوجود الانسانى •

ومقدرة الحكاية الخرافية على التسامى أكسبتها المقدرة على امتلاك الحياة والتعلق بها لا النفور منها • فشخوصها تتحرك فى خفة من اجل الوصول الى الهدف ؛ وهى لا تقف فى عالم ثقيل متعب ، وانما تقف فى عالم جميل ملى بالسحر والامل •

كل هذه الوسائل تستخدمها الحكاية الخرافية لكى تخلع على بطلها صفة الشفافية والخفة ، ولكى تجعله مليئا بالثقة والامل • فهو بطل منعزل ، ولكنه يتحرك فى انسجام مع العالم كله • ولا يعنى انعزاله سوى عزوفه عن تلك الروابط الواهية التى تربطه بالقيم النسبية ، ولكنه من أجل هذا السبب نفسه أصبح حرا فى الدخول فى علاقات أخرى جوهرية • ثم تأتى الموضوعات السحرية لتمثل قمة الاسلوب

الانعزالى التجريدى • فكل موضوع فى الحكاية الخرافية يتخذ طابعا سحريا عجيبا ؛ لأن شخوصها خفيفة الوزن والحركة ، وهى على أهبة لان تخوض غمار كل الحوادث ، مهما كانت بعيدة عن تصورات الانسان •

وربما استطعنا بعد ذلك أن نتساءل — بعد أن حددنا خصائص الحكاية الخرافية — عن وظيفة هذا النوع الادبى الشعبى • يرى الكاتب أندريه بولس أن الحكاية الخرافية تحقق للانسان الشعبى حياة العدالة والحب التى يحلم بها • ويضيف الكاتب ماكس لوثى الى ذلك ، أن الحكاية الخرافية ، رغم تحررها من الاحساسات الكهنوتية ، ورغم تحررها من الحوادث والتجارب الفردية ؛ تقدم بوسائلها الخاصة جوابا شافيا عن السؤال الذى يدور بخلد الشعب عن مصيره ، وكأنما تود ان تقول له ، هكذا ينبغى أن نعيش خفيفا متفائلا متحركا مغامرا ، مؤمنا بالقوى السحرية فى عالم الغموض الذى تعيشه (١) • وذلك لأن الحكاية الخرافية تحول كل ما هو ثقيل فى عالم الواقع ، وكل ما هو غير مرئى الى أشكال خفيفة مرئية ؛ منسابة فى دائرة الوجود عن طريق التلاعب الحر • اننا لا نرى ما هو خلف الاشياء والشخوص ، وانما نراها هى وحدها • كما أن هذه الشخوص لا تعرف من أين أتت ولا الى أين تسير ، ولماذا جاءت ؛ ولاى غرض ، ومع ذلك فهى تعيش فى الوجود الكلى لا الجزئى • ان الانسان الذى وجد نفسه مهددا فى حياة لا يدرك لها مغزى ؛ هذا الانسان الذى يصور غموض هذا العالم وأشكاله الغريبة بطريقة تهزه فى الأنواع الادبية الاخرى التى ترتبط بعالمنا الواقعى كل الارتباط مثل الحكاية الشعبية ؛ يعيش فى الحكاية الخرافية غموض هذا العالم • والاجابة التى تقدمها الحكاية الخرافية عن أحوال الانسان اجابة قاطعة ، لا عن طريق التفسير والشرح ؛ بل عن طريق وسائل عرضها السحرية • وهى لا تهدف من وراء ذلك أن تدفع الانسان الى الاعتراف بالواقع الداخلى أو الخارجى ؛ او الى الايمان بشىء ما ، بل تود لو أن الانسان لم يشغل نفسه بكل هذا ؛

---

(١) Max Luethi : Volksmaechen und Volkssage, S. 62 - 72. (Bern 1961)

وعاش خفيفا فى الاجواء السحرية ، تلك الاجواء التى رآها الانسان القديم لازمة لحياته ، وما زال الانسان الحديث يراها ضرورية لـه كذلك .

وبهذا يمكننا أن نقول ان الحكاية الخرافية تعد الادب المعبر عن الرغبة الانسانية الملحة فى تغيير وجـود الانسـان الداخلى بل تغيير الوجود كله .

* * *

رموز الحكاية الخرافية :

اذا كنا قد وضحنا وظيفة الحكاية الخرافية ، تلك الوظيفـة التى تستجيب لاحتياجات نفسية واهتمام روحى محدد ، واذا كنـا قـد وضحنا كذلك الوسائل التعبيرية التى تستخدمها الحكاية الخرافية فى سبيل تحقيق هذا الهدف ، فوجدنا أنها تميل الى الاسلوب الانعزالى التجريدى ، فلا عجب بعد ذلك أن نجد الحكاية الخرافية مليئة بالرموز التى تشير الى تجارب انسانية عميقة ، والتى يمكن شرحها شرحـا أدبيا ونفسيا معا .

ولعله من الصور المألوفة فى الحكاية الخرافية أن المرأة الجميلة الطيبة فى وسعها أن تحول الرجل الممسوخ فى صورة حيوان الى رجل جميل تتزوج به . وذلك عن طريق الكلمة الطيبة أو المعاملة الحسنة . ويعلق نوفاليس الكاتب الرومانسى على ذلك فيقول : « ان الانسان اذا انتصر على نفسه ، فانه يتغلب فى الوقت نفسه على الوجود ، فـاذا بعالم السحر يبدو أمامه . ان الدب يتحول الى أمير جميل فى اللحظـة التى يلقى فيها الحب والرعاية . هذا الحادث ربما حدث ما يشـبه اذا استطاع الانسان أن يحب الشر وأن ينتصر عليه عن طريق هـذا الحب (١) » .

ومع أن الرمز الصادق يحتمل اكثر من تفسير ، فاننا لا نود أن

---

(١) Max Luethi : Es war einmal. S. 66. (Goettingen 1964).

تحمل الرمز أكثر مما يحتمل • فنحن أمام رجل ممسوخ فى صـــورة حيوان ، أو فى أى شكل آخر غير انسانى • وهو يظل هكذا فى انتظـار الانسان الذى يفك عنه السحر • فاذا بالمرأة الجميلة تخلع عنه هـذه الصورة المؤلمة وترده الى طبيعته الانسانية ، فهل هذه تجربة انسانية قديمة أم أنها مجرد رغبة انسانية بالغة فى القدم ؟ انها كلاهما ولاشك• فالرجل الغريب المهدد ، المطرود من المجتمع ، فى وسعه أن يســترد ملامحه الانسانية ، اذا وجد المرأة التى تمنحه الحب الصادق ، فتجذبه اليها بدلا من أن تبعده عنها • فاذا بهذا الانسان الطريد يصبح مخلوقا جديدا ، وكأن سحرا رائعا خلصه من عذابه وآلامه ، وأضفى عليـه جمالا رائعا ، اذ أننا نلاحظ أن هذا المخلوق الممسوخ يتحول الى رجل أجمل من غيره من الرجال الذين لم يمسخوا •

ألا تقدم هذه التجربة صورة صادقة للشر الذى يمكن أن يتحول الى خير عن طريق الحب الصادق والكملة الطيبة ؟ بل اليست هذه فكرة رائعة يمكن ان تبرزها الاعمال الفنية الذاتية فى أروع صورة ؟

ولعله من الصور المألوفة كذلك فى الحكايات الخرافية فى جميـع أنحاء العالم ، صورة الشىء المحرم الذى لا يحق للبطل أن يقترب منه، كأن يحرم الزوج على زوجته التى يوفر لها كل أسباب الراحة والهناء ، الى درجة أنه يطرح أمامها كنوزا من الذهب والفضة ، يحرم عليهـا ألا تفتح حجرة بعينها فى البيت الذى تسكنه • وهو يقدم لها فى الوقت نفسه كل وسائل الاغراء لفتح هذه الحجرة ، بأن يقدم لها مفتاحها • ولكن المرأة تفتح الحجرة ــ رغم كل تحذير ــ مدفوعة بالرغبة الملحـة لمعرفة المجهول • فكل ما قدم لها من وسائل الراحة فى حياتنا الدنيوية ، لا يساوى شيئا الى جانب هـــذه الرغبة • وعنـدما تفتح المـــرأة الحجرة ، اذا بها لا تجـد سوى ظـلام مروع ، فتغلق الحجرة وهى تعتقد ان سرها لن ينكشف أمره • ولكن المفتاح يقع من يدها وهى تغلق الحجرة ، وتنطبع عليه بقعة من الدم ظلت ــ رغـم محاولـة المرأة ازالتها ــ دليل فعلها المحظور • ثم تنكشف جريمة المرأة لزوجها ، فاذا

بها تفقد كل شيء : تفقد الرجل وتفقد الحياة الرغدة ، ولا تغنم سوى الحسرة والندامة .

فهذا رمز آخر للانسان الذى بدلا من أن يعيش مقتنعا بحياته الواقعية تاركا الغوص فى العالم المجهول ، يود أن يكتشف كل شيء حتى المحظور عليه اكتشافه . ان مثل هذا الانسان لن يكتشف فى النهاية سوى ظلام مروع ، ومصيره أن يتخبط فى حياته ، فلا هو يصل الى اكتشاف المجهول ولا هو يعيش راضيا بحياته بعد أن رفضها .

لقد حاولنا أن نفسر هذه النماذج السابقة ، بوصفها أدبا خرافيا ورمزيا ، تفسيرا ادبيا . على أن هناك رمزا أخرى فى الحكايات الخرافية حظيت باهتمام علماء النفس ، فقد وجدوا فيها صدى لتجارب النفس الداخلية ، أى تجارب اللاشعور ، تماما كما يحدث فى الاحلام حينما تتخذ أحوال اللاشعور فيها شكل رموز .

وربما كان من المألوف فى الحكايات الخرافية أن الطفل البطل يظهر له فى ساعة يأسه رجل أو امرأة عجوز تقدم له النصح وتسدى له المعونة . وقد يظهر له حيوان خير يتحدث اليه ويقدم له المساعدة اللازمة له فى مغامراته الجديدة .

ومثال ذلك أن طفلا يتيما عهد اليه أن يرعى بقرة ، ولكنها ولت منه هاربة ، فخاف أن يرجع بدونها وهرب . ولما تعب من السير جلس تحت شجرة وراح فى نوم عميق . فلما استيقظ بدا له كأن سائلا فى فمه . ثم رأى عجوزا يسقيه اللبن عندئذ طلب منه الطفل أن يعطيه مزيدا من اللبن ، اذ كان جائعا . فقال له الرجل : « كفاك اليوم هذا المقدار . لولم يهدنى الطريق اليك لكانت نومتك هذه هى الأخيرة » . ثم طلب من الطفل أن يحكى له قصته ، فحكاها له . عند ذاك قال العجوز : « ياولدى الصغير ، انك لن تستطيع العودة بعد ذلك ، وحيث أننى لا أمتلك منزلا يأويك أو أهلا يعتنون بك ، فليس فى وسعى سوى أن أقدم لك النصح .

سر أمامك شرقا حيث الجبل الشاهق ، فانه يخفى لك كنزا ثمينا » • ثم قدم اليه تعويذة سحرية يستعين بـا فى وقت الحاجة •

ان الطفل هنا لم يستطع أن يحقق لنفسه ــ لاسباب داخلية وخارجية ــ المعرفة اللازمة التى يحتاج اليها فى أزمته • ومن ثم فقد كان يهفو الى تحقيق هذه الحاجة النفسية • وقد تشخصت هذه الحاجة فى شكل رجل عجوز حكيم ، وفر عليه تردده وحيرته ، وحسم له الموقف بأن يستمر فى السير الى امام ، حيث الجبل الشاهق شرقا • أما العودة الى الوراء فليس لها من سبيل • والعملية كلها ، فيما يرى يونج ، تهدف الى جمع قوى الشخصية بوصفها كلا فى اللحظة التى تتصارع فيها كل القوى الانسانية ، الروحية والطبيعية • ومن شأن الشخصية المتكاملة حينئذ أن تفتح الطريق الى المستقبل (١) •

ان بطولة الطفل ظاهرة تشيع فى الأسطورة والحكاية الخرافية والشعبية على السواء • ولهذا فاننا سوف نخصها بمزيد من التوضيح بعد أن نفرغ من عرضنا للحكاية الخرافية والحكاية الشعبية •

على أن البطل لا يقابل فى طريقة القوى الخيرة وحدها ، فكثيرا ما تتهدده القوى المهولة التى تظهر فى أشكال عديدة • وهذه القوى تعد بدورها تشخيصا لهذا الصراع الداخلى الذى يتحتم على الفرد أن ينتصر عليه فى سبيل تحقيق ذاتيته وشخصيته المتكاملة •

وقد عبرت الحكاية الخرافية بوفرة عن التجارب التى تخوضها الفتاة منذ أن تصل الى سن البلوغ حتى تستقل عن أهلها وتتزوج • وربما كانت قصة الفتاة التى تخطفها جنية أو ساحرة فى سن النضوج السابق للزواج وتأسرها داخل قلعة بعيدة وراء البحار وفى أعلى قمم الجبال ، ربما كانت هذه الحكاية نموذجا لغيرها من الحكايات التى كثيرا ما ترد فى مجموعات الحكايات الخرافية فى جميع انحاء العالم • ومن

C.G. Jung : The Phenomenology of the spirit in Fairy Tales, p. 14. (Papers from the Euranes Year books) New York 1954.

أوصاف هذه القلعة أنها خالية من الابواب ، وليس بها سوى شـــباك واحد فى أعلاها تدخل منها الجنية متسلقة على شـــعر الفتاة بعـــد أن تناديها من أسفل لكى تسدل اليها شعرها الذهبى • ثم يقترب الأمير الجميل متجولا حول القلعة ، فيسمع صوت غناء الفتاة ويشاهدها مـــن أسفل ، ويقع على التو أسير حبها • ولكنه لا يمكنه الصعود اليها الا بعد أن يكتشف الطريق الذى تصعد فيه الجنية ، فيستخدمه فى غيابهـــا ويصعد الى الفتاة التى يصيبها الذعـــر فى بادىء الامر ، وترتمى فى أحضانه بعد ذلك • ثم تكتشف الجنيه الامر ، فتطرد الفتاة من القلعة وتتركها تتجول فى قلب الفضاء ملفعة فى سحابة حتى تهبط فى مـــكان ناء يخلو من البشر • اما الامير فتصيبه الجنية بالعمى • وتجتمع بـــه الفتاة وتبكى • فتسقط قطـــرة من دموعهـــا على عينى الامير فيرتد مبصرا • وحينئذ يجتمع شملهما ويعيشان فى سعادة الى الابد (١) •

وشبيه بهذه الحكاية حكاية أنس الوجود والورد فى الاكمام فى الف ليلة وليلة (٢) • فقد قرر الأب أن يحبس ابنته الورد فى الاكمام فى قلعة نائية حتى لا يتعرف عليها أنس الوجود • وحاولت الورد فى الاكمام أن تطرد الوقت ولم تشعر قط ببعدها عن أهلها • غير أنها لـــم تنس حبيبها كما أنه لم ينسها • ثم يخوض الحبيبان مغامـــرات كثيرة حتى يلتقيا ويتزوجا • والفرق بين الحكايتين السابقتين هو أن حكاية الف ليلة وليلة تمثل مرحلة متطورة للحكاية الاصلية ، ومن ثم فان عصر التأليف الواعى قد فرض عليها • أما الحكاية الاولى فقـــد دونت فى صورتها الاولى ولهذا فان الرموز فيها أكثر وفرة من الحكاية الثانية • ومع ذلك فنحن ازاء حكايتين ترمزان الى التجارب التى تخوضها الفتاة منذ أن تدخل فى سن النضوج حتى تتزوج • ونحن نلاحظ أن الفتـــاة تجتاز المراحل المختلفة ، مرحلة بعد الاخرى ، وان تم هذا الاجتياز فى ألم وقلق • فقد استولت الجنية على الفتاة من أمها ، لان الام سرقت

Max Luethi : Das Europaeische Volksmaerchen. S. 77. Bern 1960.

(٢) الف ليلة وليلة : الجزء الثانى من ص ٢١٧ — ٢٨٤ — مكتبة الجمهورية . (Bern 1960)

النبات الذى اشتهته من حديقة الجنية فى أثناء فترة حملها • وقد تمت عملية السرقة فى حالة من الرغبة الملحة الممزوجة بالخوف والقلق • وكان على الام أن تدفع ثمن ذنبها بأن تسلم الفتاة للجنية فى سن الثانية عشرة ، أى فى فترة بلوغها • ومعنى هذا أن الام بسبب رغباتها الذاتية دفعت الفتاة لان تعيش فى القلعة النائية أى داخل لا شعورها ، تماما كما دفعت أنانية الاب ــ الذى شاء أن يحتفظ بابنته بكرا ــ الى حبس ابنته داخل القلعة النائية • بل انه أمر الخدم الذين حملوا ابنته الى تلك القلعة التى تقع خلف البحار ، أمرهم بأن يحطموا المركب الذى حملها حتى لا تكون لديها وسيلة للرجوع الى حبيبها • ولكن الفتاة فى كلتا الحكايتين اعتادت الحياة داخل القلعة ونسيت أهلها ، وصارت تقتل الوقت بالغناء والاعمال الاخرى • أى ان الفتاة بدأت تتحلل من رابطة الام والاب ومن روابط الطفولة • ولكن ما ان ظهر الامير فى حياة الفتاة فى الحكاية الاولى ، وما ان اشتد الوجد بالفتاة فى الحكاية الثانية حتى تخلصت الفتاتان من أسر القلعة ، وان تم ذلك فى عذاب وألم • ومعنى هذا أن كلتيهما بدأت تدخل فى مرحلة ثالثة تحررها من المرحلة الثانية ، ولم تكن مغامرات الفتاتين الشاقة ، بل ومغامرات الحبيبين سوى وسيلة للوصول الى المرحلة الثالثة ، مرحلة الزواج والاستقلال والسعادة التامة •

ان العذاب الذى يتحتم على الفتاة أن تذوقه فى كلتا الحكايتين ليس سوى تشخيص لذلك الصراع النفسى الذى تخوضه كل فتاة حتى تحقق ذاتها وشخصيتها الموحدة الكاملة • ولا يتحقق هذا الا بعد أن تتحرر من قيد الماضى ومن سلطة الابوين •

وبهذا نرى كيف أن الحكاية الخرافية تقدم لنا نماذج وتجارب انسانية بطريقة رمزية ، وقد تحقق ذلك عن طريق أسلوبها الانعزالى التجريدى التسطيحى • وعلى الرغم من ان التجارب الانسانية التى تصورها الحكاية الخرافية تجارب عميقة ، فان الحكاية الخرافية قادرة بوسائلها الخاصة على تصوير ذلك تصويرا خفيفا بعيدا عن ثقل العالم الواقعى وكآبته •

واذا كان الادباء قد اهتموا بالحكاية الخرافية منذ القرون الوسطى فان الحكاية الخرافية ما يزال لها من المكانة والتأثير على الادباء المعاصرين ، بخاصة الحكاية الخرافية التراجيدية . وقد أثرت هذه الحكاية فى أدبنا المعاصر عن طريقين : طريق مباشر وآخر غير مباشر . أما الطريق المباشر فيتمثل فى تلك الحكايات الخرافية التى ما يزال الكتاب الافراد يكتبونها مستوحين فيها جو الحكاية الخرافية الشعبية . ومثال ذلك مجموعة الحكايات الخرافية للكاتب الالمانى المعاصر « هيرمن هيسى » تحت عنوان « حكايات هيرمن هسى الخرافية » . وأما الطريق غير المباشر فيتمثل فى هذا الاتفاق الكبير بين الحكاية الخرافية التراجيدية وأدب اللامعقول .

وسنحاول الآن أن نبين تأثير الحكاية الخرافية من هاتين الزاويتين لندرك الى أى حد ما تزال الحكاية الخرافية تؤثر فى أدبنا .

أما عن التأثير المباشر للحكاية الخرافية فى الأدب المعاصر ، فنشير فى هذا المجال الى حكاية « حلم النادى » (١) ، وهى احدى حكايات « هيرمن هيسى » السابق ذكرها .

وتحكى الحكاية ان الأب شاء لابنه أن يفترق عنه حتى يعرف الحياة من خلال تجواله وحيدا ، وقال له : « يا بنى خذ نايك ولا تنسى أباك المسن اذا ما تجولت فى العالم البعيد . واذا ما أصبح الناس يلتفون من حول نايك ، لقد جاء الوقت لان نرى الحياة وأن تتعلم شيئا . لقد تركتك تصنع نايك هذا لانك لا تجيد عمل شىء آخر ، ولانك تهوى الغناء . ولكن تذكر دائما أن تغنى أغنيات جميلة ، والا فانك تسىء الى موهبتك التى منحها الله لك » . وهنا يعلق الابن على قول أبيه فيقول : « ان أبى العزيز لم يكن يفهم من الغناء الا قليلا ، اذ كان مشغولا بالعلم . انه يعتقد أننى بمجرد أن أنفخ فى الناى ، تنطلق الاغنيات الجميلة . اننى لم أصدقه على كل حال ، ولكنى لها أعارضه .

---

(١) Herman Hesse : Maerchen, S. 46 - 54, (Hamburg 1964).

وكل ما فعلته هو أننى وضعت الناى فى جيبى وافترقت عنه » .

وبدأ الابن تجواله فصعد الجبال واخترق الغابات دون أن يبصر أحدا . وفجأة قابل فتاة جميلة قضى معها بعض الوقت الطيب . وأدرك عندئذ قيمة التجوال الذى أطلعه على سر جمال الحياة . ولكن الفتاة اضطرت لمفارقته . واستأنفت سيرها وحدها ، بينما هبط الابن من أعلى الجبال الى شاطىء النهر . وما كاد يصل الابن الى أسفل الجبل حتى لمح نوتيا يستريح بجوار مركبه ويرمقه بعين كأنما كان فى انتظاره، فحياه الابن ورد الرجل التحية . وركب معه الابن دون أن ينبس الرجل بكلمة . وسار المركب فى عرض النهر . وسأل الابن الرجل عن هدفه . فأجابة الرجل : « الى أى مكان تود السير فيه . فكل شىء ملكى » . عندئذ سأله الصبى عما اذا كان ملكا . فأجاب الرجل : « ربما . ويبدو لى أنك شاعر تهوى الغناء . فهل لك أن تغنى لى أغنية ؟ » عندئذ أحس الابن باحساس غريب يمتلكه . ولكنه انطلق فى الغناء . وظل الرجل ينظر اليه بوجه صامت حتى فرغ من غنائه . وعندئذ انطلق الرجل يغنى أغنيات عن الأنهر والجبال والوديان . وشعر الابن لقوه بضعفه وضعف صوته الى جانب قوة الرجل وقوة صوته . لقد غاب عنه الاحساس بالجمال والمرح اللذين تملكاه منذ أن قابل الفتاة واذا به يشعر الآن أن الحياة مظلمة مليئة بالألم . فلما أظلم الجو من حولهما طلب منه الابن أن يغنى أغنية فى الحب . ولكن حتى هذه الأغنية أشاعت فى نفسه الظلام والحزن ، فقد شعر أنه يغنى عن الموت لا عن الحب . وفجأة قاطع الابن الرجل قائلا : « ان الحياة ليست اذن ــ كما كنت أظن ــ أجمل ما فى الوجود . ويبدو أن الموت هو أجمل ما فى الوجود . فلتغن لى اذن أغنية الموت » . فبدأ الرجل يغنى أغنية الموت . وهنا اختلط الأمر على الابن ؛ فلقد كان الرجل يغنى أغنية الموت كما لو كانت أغنية الحياة . وظل يصغى اليه الابن حتى أصبح كل شىء من حولهما مظلما . وعندئذ توسل الابن الى الرجل أن يرجع به من حيث بدءا رحلتهما . فرد عليه الرجل

قائـــلا : « ليس هنـــاك وسيلة للرجـــوع اذا رغبت فى البحث عن سر الوجود • ان الفتاة الجميلة هى أجمل ما صادفته فى حياتك ، ومـــع ذلك فان بعدك عنها سيطلعك على ما هو أجمل منها • اننى تارك لك المجداف حتى تبحر بنفسك حيث تريد » • وفى لحظة اختفى الرجل ، ووجد الابن نفسه يجدف وحيدا فى عرض البحر • لقد بدا له أن كل ما صادفه فى حياته لم يكن سوى وهم ، أبوه والفتاة الجميلة والرجل • وود لو أنه نادى على الرجل الذى اختفى ، ولكن شيئا منعه من النداء • وفى ضوء المصباح الضعيف رأى وجها على صفحة المياه تبزغ فيـــه عينان حادتان ونظرة حزينة • ولم يكن هذا الوجه سوى وجهه • ولكن حيث أنه لم يكن هناك سبيل الى الرجوع ، فقد استمر فى سيرة فى عرض النهر وفى الظلام الداكن •

هذه الحكاية تكشف عن ملامح الحكاية الخرافية ولا شك • فهى تبدأ بموضوع كثير الورود فى الحكايات الخرافيه ، وهو موضوع الأب الذى يطلب من ابنه أن يفارقه لكى ينطلق فى الحياة • وهذا الموضوع يكشف فى الحكاية الخرافية الشعبية عن خوف الأب من ابنه الذى أوشك على أن يصبح رجلا يمكن أن يقاسمه حياته • كما أن الأب منح ابنه النادى ، تماما كما يمنح الأب الابن شيئا ذا قوة يعينه على تجواله • ثم ان قصة الابن مع النوتى منذ بدايتها ذات طابع خرافى • فالأحـــداث الجزئية تتشابك اذن لكى تخلق جوا خرافيا • وهى لا تعد أحداثا من واقع حياتنا ، وانما هى أحداث تعيش فى عالم آخر هو عالم الخرافة • ومع كل هذا فحكاية « هيرمان هيسى » ليست هى الحكاية الخرافيـــة الشعبية ، وانما هى حكاية هيرمان هيسى وحده ، فذاتية الكاتب تفرض نفسها ولا شك فى كل موضع من الحـــكاية وذلك من خـــلال التعليق والوصف ومن خلال هدف الحكاية نفسه • فالكاتب يعلق على لســـان الابن حينما شعر ، فى بداية تجواله ، بجو سحرى عجيب ، بقوله : « لو أننى غنيت لظواهر الحياة كلها ، للانسان والأزهار والســـحب والغابات والحيوان ، وللجبال والبحار والنجوم والشمس والقمر ، وأدركت الحياة من خلال أغنياتى ، فاننى سأكون الها فى الســـماء ،

وستصبح أغنياتى كالنجوم من حولى » .

هذه التعليقات لا ترد فى الحكاية الخرافيـة الشـعبية ، لأن الحكاية الخرافية لا تكشف عن احساس ذاتى ، وانما تكشف عـن احساس شعبى متفائل تختفى معه النغمة الحزينة . كما أنه لا يخفى على القارىء أن الكاتب يهدف الى تأكيد عنصر الألم فى حياتنا التى نعيشها ولا يسعى الى ازالته كما هـو الحـال فى الحكاية الخرافية الشعبية .

وعلى كل فهذا نموذج لتأثير الحكاية الخرافية الشـعبية على التأليف المعاصر الذى ينحو منحى تجريديا رمزيا . ولعل هذا يؤكـد لنا ما تمتلكه الحكاية الخرافية من قوة سحرية تفرض نفسها على عالم الأدب فى كل زمان ومكان .

أما الجانب الآخر الذى يصور تأثير الحكاية الخرافية على أدبنا المعاصر ، فيتمثل كما قلنا فى بعض وجوه الاتفاق بينها وبين نوع من الأدب ساد فى عصرنا وهو أدب اللامعقول . ويتحتم علينـا قبل أن نشرح وجوه الاتفاق بين النوعين أن نبين أولا الاسس النفسـية التى فجرت أدب اللامعقول ، لنرى الى أى حد انسجم الأدب الخرافى مع هذا الادب .

سبق أن ذكرنا أن الحكاية الخرافية لا تستمد حوادثها من الواقع الذى نعيشه . فالانسان الشعبى لم يكن مقتنعا بهذا الواقع ، ولذلك فقد صور لنفسه عالما آخر يحبه ويرتاح اليه . وفى هذا العالم يخوض البطل غمار الأسفار البعيدة فى الاجواء العلوية والسفلية ، وفى عالمـه الذى يعيشه لكى يصل الى هدف معين هو تحقيق ذاته الكاملة وربطها بما حوله وبمن حوله بخيوط متينة لا تنقطع . وقد سبق أن ذكرنـا أن الحكاية الخرافية تستعين بالأسلوب الانعزالى التجريدى فى سبيل تحقيق ذلك .

فاذا انتقلنا الى أحدث ما قدمه لنا عالم المسرح والقصة من أدبه

اللامعقول ، فاننا نجد أن الميل ينمو الى ابراز الفكرة من خلال الأسلوب الانعزالى اللامنطقى • وها نحن أولاء نرى أن عدوى هذا الاسلوب قد تسربت الينا من الغرب فيما ظهر من انتاج الاستاذ توميق الحكيم فى مسرحية « يا طالع الشجرة » ، ومسرحية « رحلة صيد » • فالبطل يعيش فى دوامة يختلط فيها الزمان والمكان اختلاطا كبيرا • فهو قد يظهر فى مكانين مختلفين فى وقت واحد . وهو قد يرى اليوم أمس والغد اليوم • وقد ينقلب الشخص الذى يراه أمامه الى أشكال مختلفة من الشخوص وغير ذلك • وقد أطلق على هذا الدافع : دافع الأحلام وهو الدافع الذى يظهر بوضوح فى الحكاية الخرافية ، بل هو يصور الوضع نفسه الذى يكون فيه الحالم مع رؤياه • يقول البطل فى مسرحية « رحلة صيد » •

« لم أعد أبصر شيئا أمامى . لم يعد هناك شىء محدد أمام عينى لكن ••• ها هى ذى أشكال غامضة بدأت تظهر ••• بدأت تتضح كل الوضوح ••• الآن تتخذ شكلا ••• نعم ••• اتخذت شكلا يمكن تبينه ••• انه شىء كالوجه ••• بل هو وجه انسان ••• نعم هذا وجه انسان قطعا ••• ولكن ••• لمن ؟ يبدو أنه لامرأة ••• حقا هو وجه امرأة ••• من تكون ؟ ••• يخيل الى أنى أعرف هذا الوجه ••• نعم أعرفه ••• عرفته ••• عرفتها •• عرفتك نعم ••• تذكرتك ••• أنت المريضة الشابة الجميلة فى فراش موتك ••• فى مستشفى قصر العينى ••• حالة خطيرة ••• » •

وفجأة ينقلب هذا الوجة الى وجه آخر فيقول الرجل محدقا فى الوجه :

« انه يتغير ••• هذا الوجه الجميل ••• يتغير بسرعة ••• كما تتغير سحابة فى السماء ••• قد تغير ••• الأنف الدقيق يتضخم ••• يتقوس ••• انقلب الى وجه آخر ••• ما هذه النظارة السميكة فوق الأنف ••• وجه من هذا ؟ لست أدرى بعد لمن ؟ ولكن ها هو ذا يتضح ••• نعم ••• نعم ••• أعرف الآن ••• هذه أنت رئيسة الممرضات

الانجليزية ... هناك فى مستشفى الاسكندرية » .

فما الدافع وراء الاتجاه الانعزالى فى أدبنا المعاصر ؟ ولكى نجيب عن هذا السؤال لابد أن نمسك بأول خيط لظهور هذا الاتجاه . وكان ذلك عقب الحرب العالمية الاولى حينما أعلن الفرد تمرده على الأوضاع الانسانية القائمة ، اذ كان متشائما كل التشاؤم . يقول بطل كوكتو فى مسرحية « أرفيوس » .

(لابد لنا من أن نقذف قذيفة ، ولابد لنا من أن نصنع افكا . اننا فى حاجة الى عاصفة من تلك العواصف التى ينجلى بعدها الجو ... انه خانق ولم يعد فى وسع الانسان أن يتنفس) .

وقد نسى أدباء هذا العصر وهم فى سكرة التحرر من الواقع ، أن عملهم ينقصه البحث عن الحقيقة الداخليـــة التى تعيش فى ذات الانســـان حتى يتحول عملهم الى ميلودراما خصـــبة . ثم أدرك الفنان بعد ذلك أن الانسان الذى ارتفع عن الواقع لابد أن يتحرك فى الواقع . وهنا تغير موضوع الانتاج الأدبى من اللاحركة الى الحركة . كما تطور من المشكلة غير المحددة الى المشكلة المحددة . ان الانسان الراغب النافر لابد أن يمسك بخيط يجذبه الى الحياة وربما كان هذا الخيط هو الايمان والاعتراف بالواقع ولو كان فى قبول هذا الواقع مرارة ليس بعدهـــا مرارة . ففى مسرحية « أنتيجون » « لأنوى » يحاول كريون أن يقنع أنتيجون بأن الحياة تستحق الاستمساك بها . يقول :

« ان الحياة كتاب يحبه الانسان ، انها لعبة تحت قدمه ، آلـــة تتلاءم مع يده ، مقعد يستريح عليه أمام بيته . وربما كانت الحيـــــاة بهذه الصورة هى السعادة » . هذه النغمة سيطرت على أعمال « ت . س . اليوت » فعبر عنها فى الحاح فى أعماله الأدبية ، فى شـــعره ومسرحياته على السواء .

ثم انقضى الزمن الذى دعا الى الحركة والى أسر الفرد داخل هذه الحركة . ذلك لأن الحركة لم تعد تقنع الانسان بحقيقة وجوده فى

الحياة • ولذلك فقد أعلن تمردة مرة أخرى • ولم يكن الدافع وراء هذا التمرد تشاؤمه فحسب ، كما كان هو الحال فى العقد الثالث من القرن العشرين ، وانما كان الدافع وراء هذا التمرد اكتشاف الانسان لحقيقة ذاته • وقد كان تعمقه لذاته قويا الى درجة أن أعترف فى ألم بتناقضها وانقسامها • وما زال الانسان المعاصر يعيش داخل ذاته محاولا أن يكشف عنها النقاب الذى يخدعه ويخدع الآخرين حتى أوصله الأمر فى النهاية الى الاحساس بغربته فى هذا الوجود • ولما أحس نفسه غريبا فى هذا الوجود كانت النتيجة أنه أصبح عاجزا عن تحديد مسئوليته • ثم ان عجزه عن تحديد هذه المسئولية دفعه الى عدم تحمسه لمطالبة الحياة بأى حق • ونتيجة لهذه التجارب النفسية كلها أخذ احساس الفرد بالظلم لوجوده فى هذا العالم يتزايد فى ألم • على أنه على الرغم من وصول الانسان المعاصر الى هذه النتيجة المؤلمة فانه لم يغب عن باله أنه يعيش فى واقع يأسره بداخله ، ولابد له أن يقضى حياته داخل هذا الواقع • حينئذ بدأ يبحث عما يمكن أن يسليه فى وجوده هذا • وقد رأى أن خوض غمار التجارب المختلفة أكثر ما يسليه فى كآبته • ولكن لما كانت تجاربه غير مدفوعة بهدف معين فانها ولا شك تجارب فاشلة • وهو مع اقتناعه بفشلها يدأب فى السعى وراءها ، اذ أنه على يقين من أن أية قوة فى هذا العالم لا تستطيع أن تحوله عن هذا الطريق الفاشل لأنها لن تستطيع أن تخمد ما وصل اليه من وعى بالغ بحقيقة ذاته •

وهكذا انحصرت مشكلة الانسان المعاصر ــ ويمثلة الأديب والفنان فى أوضح صورة ــ داخل ذاته • ولما كانت ذاته تتكون من مستويات مختلفة من الادراك عبر عنها علماء النفس بالأنا والانا الاعلى واللاشعور ، ولكل منها دوره المهم فى تكوين شخصية الفرد والوصول به الى حالة من الاستقرار أو عدم الاستقرار فى الحياة ، فقد اتجه الأديب الى تعمق هذه الذات والى عرض مأساتها • وهى تتنازعها هذه المستويات المختلفة • ولسنا ندعى بذلك أن اكتشاف الذات

وسبر أغوارها بدعة هذا العصر ، فكم كشف شكسبير عن خفايا الذات التى تتنازعها عناصر كثيرة من التفكير • وكم خلع عنها النقاب الـذى تستتر وراءه وكأنما هى وحدة مكتملة ، وهى فى الحقيقة منقسمة على نفسها مشتتة الأهواء والنوازع • ولكن كتاب هذا العصر يختلفون فى أسلوبهم ومنهجهم فى كشف النفس عن أسلوب أولئك الخالدين مـن الكتاب فى العصور السالفة • والفرق هو أن كاتب القصة أو المسرحية فى الماضى حينما كان يسجل مونولوجا داخليا ، كان يقدم لنا حـوارا مدروسا أساسه التفكير المنظم وأساسه المنطق • كما أننا نشعر دائما بأننا نقف وجها لوجه أمام المؤلف وكأنه يطل من نافذة ليروى لنا قصة يراها هو . ونحن نعيشها من خلاله • أما عند الكتاب المحدثين فقـد احتشدت عندهم المادة الباطنية احتشادا لا نظير له ، الى درجة أن انحصرت مهمتهم فى اظهار هذه المادة الباطنية دون أن يقوم بتنظيما منطق أو فكر • انها تعرض فى حالتها الانسيابية بما فيها من اضطراب زمانى ومكانى • ولعل هذا هو السبب فيما يبدو عليه الانتاج الأدبى المعاصر من اضطراب ، اذ أن الزمان الآلى لم يعد له وجود بعد أن أفسح المجال للزمان النفسى • والزمان النفسى يرتبط بالمكان النفسى كذلك • وهكذا تحولت الأحداث المتسلسلة تسلسلا زمنيا منطقيا ، تلك التى كنا نعهدها فى الأعمال الادبية التقليدية ، الى سلسلة غير متجانسة من المدركات ترصد كما تظهر فى حينها • ويخيل لنا ونحن نقرأ عمـلا من هذه الاعمال الأدبية أننا ازاء حلم تعرض أمامنا فيه المستحيلات وغير المعقولات مثل التغييرات السحرية وعودة أحداث مضت وأناس طواهم الزمن. وصور منعكسة على شاشة العقل مشوشة غير متناسقة حينا ، وحينا آخر حادة الوضوح •

ومن هنا نرى أن انتاجنا الأدبى الحديث يتفق فى منهجة مـع الحكاية الخرافية • ونعنى اللامعقولية فى سرد الحوادث • وما ذلك الا لأن الانسان الحديث يتفق مع الانسان القديم تماما فى حيرته فى هـذا الوجود . وكل ما هنالك من فرق هو أن الانسان القديم اقتنع بعالمـه الخرافى الذى صوره لنفسه واعتبره بديلا لعالمـه الواقعى ، فى حين

أن الانسان الحديث لم تعد تقنعه التجارب والمغامرات ؛ بل انها على العكس تملؤه باليأس وتؤكد له تفاهة الحياة التى يعيشها •

وعلينا الآن أن نقدم نموذجا من الحكايات الخرافية ونقارنه بعمل أدبى حديث لعلنا نستطيع أن نتمثل ما ذكرناه من وجوه المقارنه عن طريق المنهج التطبيقى • والحكاية الخرافية التى نعرضها من التراث هى حكاية « كتاب الاله توت السحرى » وهى من التراث المصرى الفرعونى •

تحكى هذه الحكاية (١) أن الاله « توت » حينما قدم الى الحياة كتب كتابا سحريا • ومن يتمكن من الحصول على هذا الكتاب ويقرأ أول حكمة فيه يستطيع أن يسلط سحره على السماء والأرض وعلى العالم السفلى وعلى الجبال وعلى منابع المياه جميعا • وأما من يتمكن من قراءة حكمته الثانية فانه يستطيع أن يعود الى الحياة الدنيا بعد مماته الا أنه لن يستطيع الاقامة فيها • وفى أثناء رجوعة الى العالم السفلى يرى الاله رع وسط الآلهة وبجواره القمر فى السماء •

وبعد أن كتب الاله توت كتابه السحرى صعد الى السماء • ثم وضع كتابه هذا داخل صندوق من الذهب • ووضع الصندوق الذهبى فى صندوق آخر من الفضة ، وهذا بدوره فى صندوق من البرونز ، والصندوق البرونزى فى صندوق من الحديد • ثم ألقى الاله توت هذه الصناديق جميعا فى البحر وعين حراسا من التنين والعقارب والأفاعى تحرسها على مسافة ميل • كما أنه خصص للصندوق الحديدى أفعى تلتف حوله فى احكام •

وحدث أن كان لفرعون ابن يدعى نفركاه بتاح ، وكان متزوجا من ابنة لفرعون تدعى آهويرى • وقد رزق منها بولد سماه مرآب • وكان نفركاه بتاح عالما قضى عمره بجوار كبار الكهنة وفى دراسة أقدم الكتابات • ومن خلال قراءته تعلم السحر وعرف الكثير مما لا يعلمه

Lisa Tetzner : Maerchen, 16 - 27 (Frankfurt 1958).

الآخرون • وبينما كان يقرأ فى شغف ذات يوم فى احـد المعابد ، نظر اليه أحد الكهنة وضحك منه ساخرا • فلما سأله نفركاه بتاح عن سبب ضحكه أجاب بأنه يضحك منه لأنه يجهد نفسه فيما لا معنى لـه • ثم أخبره أنه اذا شاء أن يقرأ كتابات ذات أثر فعال ، فعليه ان يتبعه الى مكان ما حيث يوجد كتاب الاله توت السحرى الذى كتبه بخط يده • ثم حكى له قصة هذا الكتاب • عندئذ أجاب نفركاه بتاح أنه يرغب فى قراءة هذا الكتاب • وهو على أتم استعداد لان يقدم فى سبيل ذلك تضحيات بالغة • عندئذ أسر اليه الكاهن بالمكان الذى يختفى فيـه الكتاب • ثم أخبر نفركاه بتاح زوجته بما حدث • وما أن سمعت الزوجة بهذا الخبر حتى رفعت صوتها باللعنة على الكاهن وعلى معبده • قالت : « لعل الاله آمون ينزل عليه العقاب ••• لقد قدر على أن أعيش حياتى فى كآبة وحزن » • ثم توسلت الى زوجها ألا يقدم على هذا الفعل ، ولكنه لم يصغ لتوسلاتها وأخبرها بانه سيستقل الزكب معها ومع ولده مرآب الى صعيد مصر لكى يظفر بكتاب توت السحرى • ثم ابحروا جميعا الى قفط • وهناك ترك نفركاه بتاح زوجته وابنه فى بيت تهيأت فيه كل أسباب الراحة • أما هو فملأ سفينة فرعون التى استقلها الى قفط بالرمال ثم صنع لنفسه سفينة أخرى من الشمع صور فيها البحارة والمجاديف ثم تلا كلمات سحرية ، فاذا بنموذج السفينة يتحول الى سفينة حقيقية مزودة بالبحارة والمجاديف • ثم استقل هذه السفينة واصطحب معه فرعون وأبحر بعيدا عن قفط فى حين بقيت أهويرى زوجته على شاطىء النهر تنتظر زوجها وقلبها يرتعد خوفا وقلقا •

ألقى نفركاه بتاح أوامره الى البحارة أن يبحروا حيث الكتاب السحرى • فأطاعوا أمره واستمروا فى سيرهم أياما ولياليى • وفى اليوم الثالث وصلوا به الى مكان الكتاب • وهناك أخذ نفركاه بتاح يلقى بالرمال فى البحر حتى اعترض مجرى المياه سد من الرمال • عندئذ ظهر له الحراس والأفاعى والتنين ، وشاهد الافعى تتلوى حول الصندوق • فقرأ نفركاه بتاح كلماته السحرية واقتحم الطريق الى الصندوق • ولما اعترضت طريقه هذه الحيوانات قاتلها حتى قضى عليها ، ولكنها سرعان ما كانت تسترد أشكالها الطبيعية وتعود الى الحياة مرة أخـرى • فقاتلها مرة بعد مرة ، وفى كل مرة كانت تستعيد شكلها • عندئذ فرق

بين أجزائها المتناثرة بسدود من الرمال ، فلم تتمكن بعد ذلك من استعادة شكلها والعودة الى الحياة • وبعد ذلك وصل نفركاه بتاح الى مكان الصندوق الحديدى وفتحه • وأخذ يفرغ الصندوق تلو الاخر حتى وصل الى الكتاب • فلما قرأ أول حكمة فيه ، أحاط علما بما فى السماوات والارض • فلما قرأ الحكمة الثانية رأى الاله رع اله الشمس مع الآلهة الأخرى ؛ كما رأى القمر عند بزوغه والنجوم فى أشكالها الحقيقية • وكان الضياء يسطع أمامه فى حين ظل الظلام الدامس من خلفه • وما أن اطلع على كل شىء فى الكتاب حتى تلا بعض الكلمات السحرية ، فانقسم النهر • وصعد الى ظهر السفينة وأمر البحارة أن يرحلوا الى المكان الذى أبحروا منه • وبعد أيام وصل الى قفط حيث وجد زوجته تنتظره على شاطىء النهر • فلما أبصرت الكتاب فى يد زوجها قالت له : « أعطنى هذا الكتاب الذى جر علينا المتاعب البالغة لكى ألقى عليه نظرة » . فناولها الكتاب • فلما قرأت الصفحة الاولى علمت بكل ما فى السماوات والارض ؛ فلما قرأت الصفحة الثانية رأت الاله رع اله الشمس فى ملكوته السماوى كما رأت القمر وهو يطلع والنجوم فى أشكالها الطبيعية • ولم يكتف نفركاه بتاح بهذه المعرفة ، ولكنه أحضر ورقة من البردى وسطر عليها كل ما فى الكتاب ثم تركها تذوب فى الماء ؛ وشرب الماء حتى لا يفوته شىء من قوة هذا الكتاب السحرى • ثم صعد الجميع الى ظهر السفينة وأبحروا راجعين •

ووصل الى علم الاله توت ما فعله نفركاه بتاح • فذهب لتوه الى الآله رع وقال له : ان نفركاه بتاح سعى حتى وصل الى معرفة أسرارى . لقد استولى على صندوقى الذى يحتوى على كتاباتى بعد أن قتل حراسه • فأجابه الاله رع أن نفركاه بتاح وأمثاله ملك له ، وله أن يتصرف كما يشاء • حينئذ أصدر الاله توت أمرا الهيا من السماء بألا يصل نفركاه بتاح الى ممفيس سالما •

وبينما كانت سفينة نفركاه بتاح تسير فى عرض النهر ، سقط مرآب فى مجرى الماء • فصرخ الجميع وتلا نفركاه بتاح لتوه كلمات السحر فصعد ابنه الى المركب • ثم تلا كلمات أخرى لكى يعرف ما صنعه توت مع الاله رع • كما أن الابن أخبر أباه بما يتهدده من خطر ، اذ حكم

الاله رع أن يعود الابن الى قفط ويدفن هناك وحيدا • عند ذاك رجع الوالدان بولدها الوحيد الى قفط • وهناك وضعاه فى سرج وتركاه مدفونا فى جبال قفط القاحلة •

* * *

واستحلفت الزوجة زوجها أن يرجع الكتاب مكانه حتى لا تحدث مأساة أخرى • ولكن نفركاه بتاح لم يستمع الى توسلات زوجته ، واستمر فى الرحيل متجها الى الشمال • وعلى بعد ميل من قفط ، سقطت الزوجة فى مجرى الماء بينما كانت تخطو بضع خطوات فى المركب •••

فصرخ الجميع وأسرع نفركاه بتاح وتلا كلماته السحرية • فصعدت الزوجة الى السفينة وأخبرت زوجها بالخطر الذى يتهددها ، وأعادت عليه الشكوى التى رفعها توت الى الاله رع بسببه • فرجع نفركاه بتاح الى قفط مرة أخرى ، ووضع امرأته فى سرج وتركها ترقد الى جوار ابنها فى جبال قفط القاحلة •

عند ذاك سأل نفركاه بتاح نفسه عما يمكن أن يقوله لفرعون اذا ما سأله عن ابنه وزوجته : ربما كان من الأفضل أن يعود الى قفط ويرد الكتاب الى مكانه • ولكنه أصر على الاحتفاظ به فأحضر شريطا مقدسا وربط الكتاب حول وسطه اصرارا منه على الاحتفاظ به • ثم استمر فى المسير • وما ان سار قدر ميل متجها الى الشمال حتى سقط فى مجرى النيل • وهنا صرخ كل من فى المركب : « يا لها من مصيبة كبرى ، ويالها من فاجعة ! لقد اختفى الرجل العالم ، الكاتب النابغة الذى ليس له مثيل بين الخلق » • ثم تحركت السفينة دون أن يعلم الناس أين رقد نفركاه بتاح •

وصلت السفينة الى ممفيس وأخبر رجالها الملك بما حدث • فأعلن الحداد فى مملكته • ثم رحل الجميع ليشاهدوا السفينة التى كان يركبها نفركاه بتاح فى مغامراته • ولكنهم فوجئوا به يجلس بجانب المجداف وقد شد الكتاب حول وسطه • فأحضروه الى الملك الذى اقترح أن يعاد الكتاب الى مكانه مرة أخرى لأنه جر الهلاك على نفركاه بتاح وعلى أسرته • ولكن الكهنة اقترحوا عليه أن يترك له الكتاب لأن الهلاك قد

قدر له بسبب مسعاه فى الحصول عليه • ثم أرسل الملك نفركاه بتاح ليدفن مع زوجته وولده • وبعد سبعين يوما أحضروه فى سرج ليرقد رقدته الأخيرة فى ممفيس •

ومرت بعد ذلك مئات السنين • وحدث أن كان يعيش فى ممفيس ابن الملك رمسيس الثانى ستون خعم‌واس الذى كان كاهنا كبيرا ورجلا عالما • وكان الى جانب ذلك يمارس السحر • وذات ليلة رأى ستون فى رؤياه نفركاه بتاح وعلم منه قصته ، وكيف أنه اكتسب مقدرة بالغة عن طريق الكتاب السحرى ، وكيف أنه — رغم موته — ما يزال يتحرك على وجه الأرض • عندئذ أصر ستون على أن يحصل على الكتاب الذى شده نفركاه بتاح حول وسطه وأخذه معه فى قبره • ولكن ستون تعب كثيرا فى محاولة الوصول الى قبر نفركاه بتاح ، ومع ذلك لم يهتد اليه • وذات مرة عثر على قبر أحد الأشراف ، فسأله عن مكان قبر نفركاه بتاح • فأجابه : « سر فى طريقك حتى تصل الى سلسلة الجبال التى تسكنها الغربان والنسور • انها سترشدك الى مكان قبر نفركاه بتاح » • وسار ستون فى طريق طويل مقتفيا أثر صوت الغربان حتى وصل الى قبر نفركاه بتاح • وهناك وجد الكتاب قد شد حول وسطه بشدة • ولما حاول أن ينتزعه تمثلت امامه روحا الزوجة اهويرى والابن مرآب ومنعاه من أخذ الكتاب • ثم قصا عليه قصة المصير المشئوم • ولكن ستون توسل اليهما أن يتركاه يأخذ الكتاب والا انتزعه قهرا • حينئذ تحرك نفركاه بتاح واجابه : «هل فى وسعك أن تحصل على الكتاب عن طريق سحرك؟ أم أنت على استعداد لأن تدخل معى فى مبارزة تحصل بعدها على الكتاب اذا كسبت المعركة ؟ » فأجابه أنه مستعد للدخول معه فى مبارزة •

وكسب نفركاه بتاح المعركة مرة بعد مرة • ولما رأى ستون أنه خسر المعركة وأوشك أن يفقد الكتاب ، دعا أخاه ايناروس من قبره وأمره أن يصعد الى سطح الأرض ، ويخبر فرعون بما لحقه من خزى • وعليه أن يحضر معه تعويذة والده وكتبه فى السحر • وامتثل الأخ لاوامر أخيه • وأحضر له ما طلبه ورجع بعدها الى قبره ليرقد مرة أخرى • فلما أمسك ستون بتعويذة أبيه وجد كتاب السحر فى يده ، فأخذه وخرج من

القبر • فاذا به يلقى الضياء أمامه والظلام خلفه • عندئذ بكت زوجة نفركاه بتاح وقالت لزوجها : « ان ما كسبته من رحلتك الشاقة هو الظلام أما النور فقد فقدته • هأنتذا قد أضعت كل ما تبقى لنا من قوة كانت تعيش معنا فى القبر » • فأجابها نفركاه بتاح : « لا تحزنى يا عزيزتى ؛ سوف أرغمة على رد الكتاب ؛ انه لن يجلب لستون أى سعادة • بل انه سوف يجعله أضحوكة للاخرين » •

* * *

وذهب ستون بالكتاب الى فرعون وأخبره بما حدث • ولكن فرعون أمره أن يرد الكتاب الى نفركاه بتاح والا أرغمه الأخير على ارجاعه • ولم يمتثل ستون لأمر أبيه واشتغل منذ ذلك الحين بقراءة الكتاب وأخذ يتلوه على الناس •

وذات مرة بينما كان ستون يجلس فى معبد ؛ خطت امرأة بضع خطوات داخل المعبد • وكانت المرأة رائعة الجمال تتزين بالحلى وفى صحبتها الخدم والحشم • وما ان وقع بصر ستون عليها حتى انشغل بها عن كل شىء • ولما رحلت نادى خادمه وأمره أن يذهب ليتعرف على حقيقة هذه المرأة • وذهب الخادم ثم عاد ليخبر سيده بأن المرأة تدعى تابوبو وهى ابنة رئيس الكهنة ؛ وقد جاءت الى المكان لتؤدى فريضة الصلاة للاله الاكبر • فلما سمع ستون ذلك أمر الخادم أن يعود اليها مرة أخرى ويخبرها أن سيده شغف قلبه بحبها وهو يطلبها زوجة له • فان أبت ؛ فعليه أن يخبرها بأن سيده يستطيع أن يستخدم قوته ليخفيها فى مكان مجهول من الأرض ويتركها هناك حيث لا يعلم أحد مصيرها •

ولما نطق الخادم بذلك أمام تابوبو أنبته وقالت له : « اذا شاء سيدك أن يحدثنى فى أمر فعليه أن يحضر بنفسه • فاذا رغب فى أن يتخذنى زوجة له ؛ فليعلم أننى لست امرأة عادية • اننى أعيش مع من معى فى بيت مهيىء بكل ما نحتاج اليه • فاذا شاء سيدك فليحضر الى منزلنا هذا حيث أتباحث معه فيما شاء من أمور » •

وعاد الخادم الى سيده بهذه الكلمات • ونسى ستون فى غضبه كتاب

السحر الذى كان يطالعه • وارتاع الكهنة لما حدث لستون ؛ اذ أنه أغلق الكتاب واستقل مركبا ورحل حيث ابنة كبير الكهنة • وسرعان ما اهتدى الى بيتها • لقد رآه يعلو الى عنان السماء وقد أحاط به سور منيع بداخله حديقة فسيحة • وفى لحظة شاهد تابوبو مقبلة نحوه فسلمت عليه وقادته الى داخل المنزل • وهناك أفصح لها ستون فى النهاية عن رغبته فأجابته : « أنصحك أن تعود الى البيت الذى جئت منه ، اننى لست امرأة عادية • فاذا شئت مع ذلك أن تتزوجنى ؛ فعليك أن تكتب وثيقة تتعهد فيها بدفع معاش لى طيلة حياتى » • ولما كان ستون قد أسكره الحب ؛ فقد كتب الوثيقة ووقع عليها ثم سألها : « هل تكونين بعد ذلك زوجة لى ؟ » • ولكنها قبل أن تجيب عن سؤاله ، قدم الحارس وأخبر ستون أن أولاده واقفون بالباب يبغون لقاءه • حينئذ أجابته تابوبو على الفور : « لديك اذن زوجة وأولاد ! » ثم أمرته باستدعاء أولاده ليوقعوا على الوثيقة حتى يكونوا على علم بأن والدهم سيتخذ له زوجة ثانية ، وأنه كتب لها معاشا يكفيها مدى حياتها . فلا يختلفون معها فيما بعد • وقدم الاولاد ووقعوا على الوثيقة •

بعد ذلك قال لها ستون • « لقد حققت لك الآن كل رغباتك ؛ فهل لنا ان نتزوج ؟ » •

حينئذ أجابته تابوبو : « أنصحك أن تعود الى البيت الذى قدمت منه • اننى لست امرأة عادية • فاذا شئت مع ذلك أن تتزوجنى فعليك أن تقتل أولادك • انهم أولادك من زوجتك الاولى ، ووجودهم يسبب لى الانزعاج » •

وكان ستون قد تجرع كأس الحب حتى الثمالة • فأجابها : « فلتنفذى ما يختلج بصدرك من رغبات • وأمرت تابوبو بقتل الاولاد وطرحت أجسادهم من النافذة • ثم أعاد ستون سؤاله عليها : « أتكونين بعد ذلك زوجة لى ؟ » حينئذ أجابت : « اننى الآن على استعداد للزواج منك • هيا أصعد السلم وامض أمامى • لقد هيأت الحجرة لزواجنا » •

وصعد ستون السلم ودخل الحجرة ، واستلقى على سرير من العاج فى انتظار تابوبو • وقدمت تابوبو اليه رائعة فى ثياب العرس • فما أن رآها ستون حتى قفز من السرير وطوقها بذراعيه وأراد أن يقبلها • حينئذ أطلقت تابوبو صرخة عالية وسقطت على الارض واختفت فى لحظة • ولما أفاق ستون ، وجد نفسه عاريا تماما من كل الملابس الدنيوية فى حجرة معبأة بالدخان • فلما نظر حوله وجد فرعون واقفا أمامه والناس يهرعون من حوله • ثم أراد أن يقف على قدميه ، ولكنه خجل من عريه • وسأله فرعون : « ما الذى أوصلك الى مثل هذه الحالة ؟ » فأجاب ستون : « لقد فعل كل هذا نفركاه بتاح ، اذ أراد أن يكيد لى » • عندئذ قال فرعون : « اذهب لتوك الى ممفيس فان أولادك فى انتظارك » • فرد عليه ستون قائلا : « سيدى العظيم أنى لى أن أذهب الى ممفيس وقد تعريت تماما من أى ثوب دنيوى ؟ » فأحضر فرعون له الثياب • وأمره مرة أخرى أن يذهب لاولاده فى ممفيس • ولبس ستون ثيابا جعلته أضحوكة أمام الناس . وجرى بهذه الثياب فى شوارع ممفيس حتى وصل الى بيته • وهناك وجد أولاده على قيد الحياة ، فاحتضنوه وغمروه بقبلاتهم •

وسأل فرعون ستون قائلا : « هل سكرت بالامس حتى وصلت الى الحالة التى كنت عليها ؟ » • عندئذ حكى له ستون قصته بحذافيرها • فرد عليه فرعون قائلا : « لقد أخبرتك يا ستون من قبل ، أن مصيرك الهلاك اذا لم ترد له الكتاب • ان نفركاه بتاح قد كاد لك ، فلترجع الان الكتاب الى مكانه واطلب الصفح • ورجع ستون الى مكان قبر نفركاه بتاح وهو يحمل الكتاب فى يده • فلما رأته أهويرى التى كانت تعيش مع زوجها بروحها قالت له : « ان الاله الاكبر قد ساقك الينا هنا مرة أخرى » وابتسم نفركاه بتاح ساخرا وأشار بيده اشارة سحرية فغمر الضوء المكان • ثم سأل ستون نفركاه بتاح قائلا : « هل من شىء يضايقك يا نفركاه بتاح أستطيع أن أكفيك شره ؟ » فأجابه نفركاح بتاح ، : « أنت تعرف أن زوجتى وولدى يعيشان معى بروحيهما فحسب فى هذا القبر ، وذلك بسبب اللعنة التى حلت بى من

جراء هذا الكتاب . عليك أن تذهب الان الى قبريهما فى قفط ، وأن تأخذ على عاتقك أن تحضر لى جسديهما » .

ولكن ستون تعب كثيرا ولم يعثر على قبر الزوجة والابن . فأيقظ أحد الكهنة الكبار من مرقده فى قبره ، وقال له : « انك شيخ هرم ، وربما عرفت مكان قبرى أهو يرى ومرآب » فأجابه الشيخ : « لقد أخبرنى أبى عن جدى أن القبر الذى تبحث عنه يقع فى الجنوب» .حينئذ رحل ستون الى الجنوب حيث عثر أخيرا على قبر الزوجة والابن . فحمل جثتيهما فى مركب وسار الى ممفيس ، ثم طرح الجثتين الى جانب جثة نفركاه بتاح بعد أن ربط الكتاب على وسطه مرة أخرى .

* * *

هذه هى حكاية « كتاب توت المسحرى » . وربما كانت هذه الرواية متطورة عن الحكاية الاصلية ، فهى تكشف عن حس مأساوى لا نشعر به فى الحكاية الخرافية الشعبية كما سبق أن شرحنا . ومع ذلك فاذا نحن أمعنا النظر فى هذه الحاكية الخرافية ، فاننا نجد أنفسنا أمام عمل رمزى لا مفر من فهم ما وراء شكله . لقد سعى نفركاه بتاح — وهو يمثل الانسان القديم الحائر فى هذا الوجود — وراء كتاب السحر لعلمه أن ما يحتويه هذا الكتاب كفيل بأن يزيل ما فى نفسه من احساس بالغموض ازاء وجوده فى هذا الكون ويكشف له عن سر هذا اللغز ، لغزا وجوده فى الحياة . ومعنى هذا أن الانسان القديم شأنه شأن الانسان الحديث ، لم يكن يقنع بتلك التجارب المألوفة وبتلك المعرفة العيبية التى تواضع عيها المجتمع والناس . فكلاهما يريد أن يخرج من دائرة وجوده المحدودة التى يشعر بأنه أسير فيها . وهدفهما من وراء ذلك أن يخضعا نظام الحياة لهما ، لا أن يخضعا لنظام الحياة . ومن هنا اتفقت هذه الحكاية — بوصفها نموذجا لما شابهها من الاعمال الادبية الشائقة القديمة — مع الاعمال الادبية الحديثة التى تصور البطل كائنا غريبا فى مجتمعة .وهو من شدة حيرته وشكه فى حقيقة وجوده ، يترك الواقع وراءه سعيا وراء مجالات جديدة هى مزيج من الوهم والخيال ، ولكنه يلجأ اليها هروبا من شكه وحيرته .

أما فيما يختص بالاعمال الادبية الحديثة فنحن نستشهد بمسرحية « يا طالع الشجرة » • وعلى الرغم من أن هذه المسرحية قد تناولها بالبحث أكثر من ناقد ودارت حولها المناقشات الطويلة ؛ فاننا نفضل مع ذلك أن نتمثل بها لا بغيرها من الاعمال الادبية العربية الحديثة التى تصور الانسان كائنا قد وقف عن الحركة تماما ولا سبيل له الا اللغو بتفاهة الحياة وسخفها والرغبة فى الخلاص منها مثل مسرحيات « بيكيت » وغيره •

فالشجرة فى مسرحية « يا طالع الشجرة » لتوفيق الحكيم رمز لحياة بهادر أو حياة الانسان • وبهادر مستغرق فى شجرته هذه أى فى حياته الى درجة أنه يكاد يعيش فى غفلة تامة عما حوله •فهو يقضى نهاره بجانبها وهو يسعى للحصول لها على سماد غريب يغذيها حتى تستطيع أن تثمر ثمارا مختلفة فى فصول السنة المختلفة • أى أن بهادر هو صورة للانسان الحديث الذى يريد — لكى يهرب من حياة الواقع — أن يجرى وراء تجارب جديدة لعلها تكون أكثر اثمارا وخصبا •

ولكن هذه الرغبة فى الانطلاق من القيود ، والبحث فى الحاح واصرار وراء حياة أخرى يتوهم الانسان أنها تسلى نفسه الحزينة المتعبة — هذه الرغبة لابد أن يكون وراءها تضحية بل تضحيات • وقد رأينا نفركاه بتاح قد ضحى بولده وزوجته كما ضحى ستون بولديه فى سبيل الانطلاق من حدود الواقع •

وفى مسرحية « يا طالع الشجرة » • اتهم بهادر بقتل زوجته بهانة ، ولم يكن متهمه سوى ضميره أو الانا الاعلى • ثم تدخل الدرويش (اللاشعور) وصارح بهادر بما يحاول أن يختزنه فى هذا اللاشعور وأقر التهمة حاضرا أو مستقبلا • وسبب ذلك أن شجرة بهادر هى كل شىء عنده ويهمه أن يغذيها بأثمن غذاء ولو كان هذا الغذاء جسد انسان •

الزوج : شجرتى هذه يمكن أن تطرح كل الفاكهة المختلفة فى الفصول المختلفة ؟

الدرويش : اذا تغذت بالسماد الذى تعرفه •

الزوج : أى سماد تعنى ؟

الدرويش : اذا دفن تحتها جسد كامل لانسان فانها تتغذى بكل ما فيها من متناقضات .

ويفاجأ الزوج بهذه الحقيقة ، وهى التى لم يعلنها لنفسه صراحة من قبل .

الزوج : قتلت زوجتى لأغذى الشجرة ؟ ! هذا السبب انخرافى غير المعقول هل يمكن أن يخطر على بال انسان فى عصرنا الحاضر .

* * *

على أن هذا الانسان الحائر — رغم اقتناعه بفشل تجربته أو بفشل تجربة غيره ، لا مفر له من أن يستسلم لهذا الفشل . اذ لم يعد فى استطاعته أن ينتمى الى عالم الواقع . ونحن نجد أن ستون فى الحكاية الخرافية يصر على أن يغامر مغامرة نفركاه بتاح على الرغم مما يعرفه من مصير نفركاه بتاح الاليم . وقد تمثلت أمام ستون حياة الوهم فى صورة امرأة أنذرته وحذرته عاقبة سعيه وراءها . ثم طلبت منه — بعد أن رأت منه هذا الاصرار — تضحيات بالغة . ولما قبل ستون أن يضحى بأعز ما لديه ، اختفت حياة الوهم من أمامه . وقد تركته المرأة — بعد أن أفسحت الطريق أمامه للتضحية والمغامرة — عاريا من كل لباس دنيوى . أى أنها تركته عاريا من كل أمل يمكن بأن يربطه بالحياة .

أن الانسان الحديث — ومثله القديم — الذى عكف على ذات نفسه وشغل دائما بسؤالها عن الحقيقة . ثم ارتفع بها — تبعا لذلك — من الواقع الى اللاواقع ، قتل فى سبيل ذلك العاطفة والحب ، وهما ألزم لوازم الانسان لارتباطه بعالم الواقع . ولما قتل الانسان العاطفة والحب فقد قتل أفراد أسرته اذ أن صلتهم به لا تقوم الا على الحب .

وهكذا نجد أن حكايتنا الخرافية التراجيدية قد اتفقت تماما مع أحدث أعمالنا الادبية فى موضوعها وفكرتها . أما الاسلوب الانعزالى اللاواقعى فهو يتمثل لنا واضحا فى كل من العملين . وسفينة نفركاه بتاح التى صورها من الشمع ثم نفخ فيها فاذا بها سفينة طبيعية ،

تقابل ما صنعه الدرويش فى المسرحية السابق ذكرها ، حينما سئل عن تذكرته ولم تكن لديه واحدة ، فمد يده خارج نافذة القطار فاذا عشرة تذاكر تسقط فى يده • كما أن صوت الاحتفال بالسبوع (أسبوع الجنين الذى لم يولد) الذى كانت بهانة تسمعه ، انما يذكرنا بصوت الزوجة التى ترقد فى قفط وتسر الى زوجها الذى يرقد فى ممفيس ــ بعد أن سلب منه الكتاب السحرى ــ بأنه لم يكتسب من مغامراته سوى الظلام ، أما الضياء فقد فقده • ان بهادر ومثله نفركاه بتاح وستون شخوص تعيش كلها فى أوهام • وفى بعض الاحيان تزعجها ذكريات الماضى التى كثيرا ما تتمثل أمامها تذكرها بفشلها •

وأولاد ستون الذين قتلوا وطرحت أجسادهم من النافذة ، واذا بهم بعد ذلك لم يقتلوا وانما ظلوا ينتظرون عودة أبيهم ، انما يذكرنا كذلك بغيبة الزوجة واتهام الزوج بقتلها ، واذا بها تظهر حية مرة أخرى • لقد قتل هؤلاء جميعا قتلا نفسيا ، ولكنهم ظهروا على مسرح الحياة مرة أخرى لكى يذكروا القاتل بجريمة •

بقى أن نشير الى شىء آخر فى معرض المقارنة بين العملين ، وهو استخدام كل منهما للرمز الدرامى • فليس يكفى أن نقول ان الشجرة رمز للحياة ، كما ان كتاب السحر والمرآة رمز لحياة الوهم الخادعة ، وانما يجب أن نضيف الى ذلك أن هذه الاشكال قد خلقت فى العمل الادبى ليبرز مغزاه الدرامى • واذا كانت الدراما معناها الصراع ، فان هذه الاشياء قد تسببت فى خلق الصراع فى الانسان • اذ كان عليه أن يختار بين أن يسعى وراء كتاب السحر والمرآة ، وأن يقدم لشجرته جسد انسان كامل غذاء لها ، أو يدع هذا كله ليعيش فى حياة الواقع ، فقد تصارع الانسان مع نفسه واختار السعى وراء المجهول •

ان البطل فى أدبنا المعاصر نموذج للانسان الفاشل الذى لم يحاول أن يوحد بين شعوره ولا شعوره • اما الحكاية الخرافية ، فعلى الرغم من نهايتها التراجيدية التى وصل اليها نفركاه بتاح وستون ، ووصلته اليها امرأة الصياد من قبل ، الا أنها تخفى وراء ذلك نغمة التفاؤل وكأنها تود أن تقول : لقد كان فى وسع هؤلاء الابطال أن يعيشوا حياة

ساحرة جميلة ، لو أنهم لم يسرفوا فى مطالبهم ، وسلموا أنفسهم — كما يفعل البطل الخرافى المتفائل — للقوى السحرية لتحقق لهم مطالبهم .

ولعل القارىء استطاع بعد ذلك أن يدرك قيمة الحكايات الخرافية الفنية ، وأنها ليست حكايات العجائز ، وانما هى أدب شعبى يعبر عن مشكلات الانسان الشعبى ويحقق له رغباته وآماله .